كورونا وجبريّة التباعد الاجتماعي: قهر الثقافة وإرغامُها على التشكّلِ الجديد - العراق أنموذجاً

أ.د. مازن مرسول محمد (*)

الملخص:

تمكنت جائحة كورونا من ضرب العالم دون استثناء، فجعلته مرغماً على ضرورةِ اتباع مُعطيات حياتية جديدة، وقوَّضت الصور التي اعتاد عليها سابقاً، وجعلته في جبريةٍ واضحة تمثَّلت بضرورةِ تحقيق ما يُسمى بـ (التباعد الاجتماعي)، وضرورة عدم التلامس والتقارب الجسدي قدر الإمكان، ولأن الحياة البشرية قد استندت على أصول التقارب والاختلاط والتفاعل الاجتماعي، لذلك لا يمكن تقبّل هذا التباعد بسهولةٍ، وخاصة وأنه قد سلخ العديد من الأسسِ الحياتية، وجاء بصياغاتٍ ثقافية أُخرى، حتَّمتها هذهِ الجبرية، الأمر الذي أرغم البشر على ضرورةِ التعايش مع الأنماط الحياتية الجديدة، والتي فرضت تشكَّلها هذهِ الأزمة.

وعليه تسعى هذهِ الورقة البحثية إلى تفكيكِ هذه الانعطافة المفروضة، والتي سلخت الأشكال الثقافية المُتجذّرة، إلى أشكالٍ أُخرى لا بد من اتباعها، بحيث قد تصبح مُسلماً بها بعد انتهاء الجائحة.

وما حاولت هذهِ الورقة من تتبّعهِ هو رصد ما طرأ من تغيراتٍ في ظلِ القسر الذي مارسته هذهِ الأزمة، وكيفية التعاطي مع هذا الإرغام في التباعدِ، والصور الحياتية الجديدة في المجتمعِ العراقي أثناء هذهِ الجائحة، وإمكانية تكوّن ثقافة جديدة ما بعد انتهاء هذه الجائحة. ويقيناً تم تتبّع ذلك من خلالِ المنهج الاثنوغرافي الوصفي، مع الاتكاءِ على المنهج المعرفي، ومعرفة آراء المبحوثين

(*) الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، قسم الأنثروبولوجيا والاجتماع، بغداد.

حول هذهِ الجبرية والصياغات الثقافية الجديدة المفروضة، باتباعِ وسائل الملاحظة والملاحظة بالمشاركةِ.

الكلمات المفتاحية:

الجائحة، التباعد الاجتماعي، الجبرية، الثقافة، التشكُّل الثقافي.

Coronavirus and the Necessitarianism of Social Distancing: Conquering Culture and Forcing it into a New Formation (Iraq is a Model)

Dr. Mazin Marsool Mohammed

Abstract:

The Corona pandemic struck the world without exception, forcing it to follow new life data, undermining the images that it had previously accustomed to, and imposing a clear compulsion on it represented by the necessity to make what is called (social distancing), and not to touch and physical closeness as much as possible, and because human life is based on origins of closeness, mixing, and social interaction, this distancing cannot be easily accepted, especially as it removed many foundations of life and came up with other cultural formulas, which forced human beings to the necessity of coexistence ,with the new lifestyle patterns imposed by this crisis.

Therefore, this research paper seeks to dismantle this imposed turn that has dislocation the rooted cultural forms into other forms that must be followed, and which may become taken for granted after the end of the pandemic.

Among the goals that this paper is trying to pursue is to watch the changes, in during of the coercion that this crisis has practiced, and how to deal with this compulsion in distancing, and the new life images in Iraqi society during this pandemic, and the

possibility of forming a new culture after the end of this pandemic. All of this can be traced through the descriptive ethnographic approach, and relying on the cognitive approach and knowing the opinions of the respondents on this compulsion and the new cultural formulations imposed, by following the means of observation and participant observation.

Keywords:

pandemic, social distancing, necessitarianism, culture, cultural formation.

مقدمة :

ضربت جائحة كورونا العالم بدونِ استثناء، فأرغمته على ضرورةِ اتباع مُعطيات حياتية جديدة، وقوَّضت الصور التي كان قد اعتادها سابقاً، وفرضت عليه جبريةٍ واضحة تمثَّلت بضرورةِ تحقيق ما يُسمى بـ (التباعدِ الاجتماعي)، وعدم التلامس وعدم التقارب الجسدي قدر الإمكان، وفي الوقت الذي تقوم فيه الحياة البشرية على أصول التقارب والاختلاط والتفاعل الاجتماعي، فلا يمكن تقبَّل ذلك التباعد بسهولةٍ، وخاصة وأنه قد أزاح العديد من الأُسسِ الحياتية وجاء بصياغاتٍ ثقافية أُخرى، حتَّمتها هذهِ الجبرية، والتي انعكست بشكلٍ لا غبار عليه على المنظومةِ الثقافية بكلِ ما تحويه من قيمٍ وعادات وتقاليد وأنماط وسمات، الأمر الذي أرغم البشر على ضرورةِ التعايش مع الأنماط الحياتية الجديدة والتي فرضت هذهِ الأزمة تشكَّلها.

لذلك تسعى هذهِ الورقة البحثية إلى تفكيكِ هذهِ الانعطافة المفروضة والتي سلخت الأشكال الثقافية المُتجذَّرة إلى أشكالٍ أُخرى لا بد من اتباعها، وقد تصبح مُسلَّماً بها ربما بعد انتهاء الجائحة، وتنطلق هذهِ الورقة من عدةِ تساؤلات يمكن أن ندرجها بالشكلِ الآتي وهي:

- هل فعلاً هناك جبريّة حقيقية فرضتها هذهِ الجائحة على البشرِ في العراق من ناحيةِ تواصلهم وعاداتهم وتفاعلاتهم وطرق عيشهم؟
- هل شكَّل هذا التباعد الاجتماعي المفروض ضرورةً لإعادةِ صياغة تعاملاتنا الحياتية وبروز تشكَّل ثقافي جديد يختلف عن الأسس الثقافية المُتبعة؟
- كيف تم استقبال صدمة ضرورة التغيير الثقافي والاجتماعي هذا، وردود الأفعال حولها من قبلِ الفرد العراقي؟
- ما دور القيم الثقافية التقليدية الراسخة في هذهِ المواجهة، وهل تم اتباع هذا التشكَّل الثقافي المُستحدث أم لا، وهل هناك مُبرّرات للتعارضِ مع هذا

التشكّل القيمي الجديد، هل دوافعه اقتصادية أم إرثية ثقافية، أم غيبية تعود إلى المُعتقداتِ الراسخة؟

- وما دور الدين ووعي الفرد العراقي في التعاملِ مع هذهِ الجبرية الواضحة، وهل هناك مُمكنات حقيقية لبروز أنماط ثقافية جديدة أفرزها هذا الظرف وتشكيل ما يُسمى بمجتمع وثقافة ما بعد الجائحة، أم أن الأمر طارئ فحسب يتوقف على انتهاءِ هذهِ الأزمة؟

من ضمنِ الأهداف التي تحاول هذهِ الورقة تتبَّعها هي رصدِ ما طرأ من تغيّراتٍ سواء أكانت صغيرة أم كبيرة قيمياً وثقافياً على المجتمعِ العراقي في ظلِ القسر الذي مارسته هذهِ الأزمة، وكيفية التعاطي مع هذا الإرغام في التباعدِ، والصور الحياتية الجديدة في المجتمعِ العراقي أثناء هذهِ الجائحة، وإمكانية تكوَّن ثقافة جديدة ما بعد انتهاء هذه الجائحة. وكل ذلك يمكن تتبَّعه من خلالِ المنهج الإثنوغرافي الوصفي بملاحظةِ سلوكيات الفرد العراقي والفرض الثقافي الجديد، في محافظةِ بغداد العاصمة بمدنِ الصدر والشعب وحي أور والقاهرة الشعبية، مع الاتكاءِ على المنهجِ المعرفي ومعرفة آراء المبحوثين حول هذهِ الجبرية والصياغات الثقافية الجديدة المفروضة، باتباعِ وسائل الملاحظة والملاحظة بالمشاركةِ، في فترةٍ زمنية امتدت منذ بدايات اتساع انتشار الوباء في العراق منذ الشهر الخامس من عامِ ٢٠٢٠ ولمدةِ أربعة أشهر تقريباً، لغرضِ الخروج بحصيلةِ استنتاجات نسبية وصفية ليست قطعية لعدمِ انتهاء الجائحة واستمراريتها، حول هذا التشكّل الثقافي الجديد ومردوداته قيمياً وثقافياً بالنسبةِ للفردِ العراقي في بغداد.

أولاً- مُنعرج الجائحة والتشكّل القسّري لها:

نعني بالتشكّل القسري هنا، أن الجائحة دخلت وتشكّلت رغماً عنا، ولا يمكن الحكم المُطلق على أن مرحلة التعرّض للأوبئةِ والفيروسات والجوائح قد انتهت بإصابة العالم على الأغلب بكوفيد ١٩، فقد مرَّت البشرية بعدةِ تجارب جسَّدت

من خلالها إصابتها بعدةِ أوبئة وتفشيَّها فيها بشكلٍ واسع، واليوم أحكم فيروس كورونا قبضته على العالمِ أجمع منذ ظهوره فيه وإلى الآن، حيث شمل مساحات ونفوسا بشرية أوسع من ناحيةِ الضرر على كلِ المُستويات، فانعزل العالم في سابقةٍ خطيرة جداً شلَّت أغلب مرافق حياته.

يمكن القول: إن كلمة أو مصطلح وباء ارتبط منذ القدم أو جاء مُتلازماً مع حدوثِ وانتشار الأمراض المُعدية، إلا أنه لم يشتمل فحسب على الأمراضِ المُعدية، بل شمل استعماله الحالي رصد كل التغيُّرات في مؤشراتِ الإصابة أو انتشار مرض أو حدث صحي ما، أيضاً فيما يتعلق بالأوبئة فإن الفترة الزمنية المُحدَّدة لها باتت تصل إلى سنواتٍ وليس فقط عدة أيام أو شهور (نخبة من أساتذةِ الجامعات في العالمِ العربي،٢٠١١)، الأمر الذي يُشير بيقينٍ إلى استمراريةِ تعرّض البشرية بين مدة زمنية وأُخرى إلى أوبئةٍ أو جوائح جديدة، وقد لا يخلو المستقبل منها بحسبِ البيئات المُلائمة لظهورها.

وإذا عمدنا إلى تفريقٍ واضح بين الوباء والجائحة على مستوى مُصطلحي، وتمييز من ناحيةِ المعنى ولفكِ الالتباس بين المُصطلحات، يمكن الإشارة إلى أن الوباء أُتفق على أنه حدوث حالات من مرضٍ أو أي أمر صحي آخر يتعلق بمجتمعٍ أو بقعة مأهولة سُكَّانياً يحدث فيها هذا المرض أو الحالة الصحية بنسبٍ أكبر تفوق المُعتاد (نخبة من أساتذةِ الجامعات في العالمِ العربي،٢٠١١)، أي أن الإصابات التي تطغى بشكلٍ لافت للنظرِ أو تتَّسع بشكلٍ تتم ملاحظته، يُطلق عليها وباء حيث ينتشر بسرعةٍ وبشكلٍ مُفاجئ. أما الجائحة فهي أيضاً وباء لكنه يتَّسع وينتشر ليصيب نسبة كبيرة من البشرِ؛ وذلك عبر مساحات جغرافية واسعة جداً (نخبة من أساتذةِ الجامعات في العالم العربي،٢٠١١)، أي يفوق ما حُدِّد على أساسِ الوباء ليصل إلى مرحلةِ الجائحة بتوافرِ عنصرين على الأقل الانتشار الواسع جغرافياً والإصابات الواسعة جداً، وظهرت العديد من الجوائحِ التي هدَّدت البشرية بشكلٍ واسع آنذاك.

ولو لاحظنا المُنعرج القسري هذا، والذي قد يبقى قسرياً ومُستمراً أو ينتهي بحسبِ التعامل مع الظرفِ، الذي تتشكّل به الأوبئة والجوائح والتي تُجبر البشر على إعادةِ صياغات حياتهم من جديد، لوجدنا أن العديد من الأوبئة والجوائح غيَّرت جوانب حياتية مهمة منها اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية ودقائق مُفصَّلة عديدة في حياةِ الإنسان، بمعنى أن هذهِ الأوبئة والفيروسات تُمارس بين مدة وأخرى قسراً واضحاً على ميادينِ الحياة بمجردِ توافر الظروف المُلائمة لتشكّلها وتفشّيها. وعلى هذا الأساس تظهر تدابير البشر من ناحيةِ المواجهات التي قد تختلف الواحدة عن الأُخرى باختلافِ الأوبئة والفيروسات من ناحيةِ الشدة والتعقيد وطول مدة البقاء.

أيضاً لم يخلُ القرن العشرين من الأوبئة والمراحل التي أجبرت العالم على إعادةِ ترتيب صور حياته من جديد. فقد شهد ظهور عدد من هذهِ الأوبئة منها نيباه (Nipah)، و ايبولا (Ebola)، و زيكا (Zika)، و شيكونغونيا (Chikungunya)، وفيروس كورونا المُتلازمة التنفسية الشرق أوسطية (MERS-CoV)، وفيروس كورونا التاجي الحاد المُتلازمة التنفسية الحادة (SARS-CoV)، ومؤخراً في القرنِ الحادي والعشرين ظهور كوفيد١٩ (COVID-19)، حيث انتشر في أكثر من ١٨٦ دولة حول العالم (Aziz et al.,2020)، وتتراوح معدلات الوفيات بـايبولا مثلاً بين ٤٠٪ و٧٥٪، بحسب المكان الذي يتفشى فيه، وتتراوح نسبة الوفيات بين من يصابون بكوفيد١٩ من ٨ – ١٠٪، فضلاً عن أمراضٍ وأوبئة أُخرى اختبرت قوتها وقدراتها على البشريةِ خلال مراحل حياتها، والتي على أساسها شكَّل ذلك تحفيزاً لاستنهاضِ القدرات النوعية في الطبِ والصحة، وإيلاء صحة الإنسان أهمية أكبر من ذي قبل، وأعادت العديد من الدولِ الكبرى أجندات تعاملها مع العالمِ من منطقِ فرض القوة والاستحواذ والسيطرة، باعتبارها واحدة من الأزمات التي تضرب البشر بين فينة وأُخرى.

أمَّا على مستوى الفيروسات التاجية فقد تم تحديدها لأولِ مرة في الستينياتِ

من القرنِ العشرين، حيث كانت الخفافيش هي المُضيف الطبيعي لكورونا، إلا أنها ليست الحيوان الوحيد القادر على نقلِ الفيروس للبشرِ (Bruns et al.,2020)، وإنما هناك وسائط نقل أُخرى تم تحديدها تعود للكائناتِ البحرية وأيضاً لبعضِ الطيور والجِمال والأبقار، والقطط، حيث إن كوفيد١٩ انتشر من الحيواناتِ إلى البشرِ واستمر بالتداولِ والاتساع نتيجة العدوى من إنسانٍ لآخر، من ناحيةِ ظهوره لأولِ مرة في ووهان الصينية نتيجة الارتباط بالأطعمةِ البحرية وسوق الحيوانات الحية كما شاع وتناقله العالم.

على هذا الأساس فإن كوفيد١٩ أزمة صحية واقتصادية على نطاقٍ عالمي، ولربما لا يعرف الكثير إلى الآن عن جوانبٍ عديدة لهذا المرض، مثل طريقة انتقاله بدون أعراض، وأيضاً التدابير الوقائية وإمكانية العلاج واحتمالية اللقاح والآثار طويلة المدى، وأن معدل الوفيات جراء الإصابة به (مُنخفض)، مقارنة بالأوبئة التي ظهرت سابقاً مثل السارس والإيبولا والطاعون، حيث تزداد الوفيات عند كبار السن وذوي الأمراض المُزمنة(UNCTAD,2020) ، وعلى الرغمِ من التقدَّمِ نوعياً بعد عام تقريباً من انتشارِ الوباء والتوصَّل لعددٍ من اللقاحاتِ، والتي تحتاج إلى فترةٍ زمنية لمعرفةِ آثارها على البشرِ، وتشخيص العديد من أسبابِ تكوّن هذا الوباء، فما زالت هناك أمور خافية عنه، كما أن الأمر من ناحيةِ التداعيات والمؤثّرات ليس محصوراً بالجانبِ الصحي والاقتصادي، فكورونا أصابت عصب الحياة الحسَّاس من صحةٍ واقتصاد وسياسة وسياحة وثقافة ومطامح وتوسّعات وغايات كثيرة، ولأن قضية التصدّي لهذا الفيروس وانحساره من عدمهِ لا زالت مسألة ليست محسومة بعد حتى مع توافرِ لقاح أو تطوير علاجات له، لذلك لا يمكن الجزم بالمواقفِ النهائية لمؤثراتِ هذهِ الجائحة، التي وضعت البشرية في زاويةِ القسر على التصرّفِ وفق ما فرضته من التزاماتٍ أجبرت البشر وما زالوا على اتباعها والذي يعني أعداداً كبيرة من الإصابات بها.

لقد فرضت هذه الجائحة منطق العزلة الواسع وجعلته لازمة لها وفق كل المقاييس، فبعد أن كان الاجتماع هو عصب الحياة البشرية وجد البشر أنفسهم أمام عقبة هذا الاجتماع، ولا بد من العزلةِ والابتعاد عن بعضهم البعض، إلا بالحدودِ المسموح بها، مما شكَّل محنة تمثَّلت بتغيرٍ مُفاجئ لواحدةٍ من أهمِ صور الحياة والمُتمثلة بالاجتماعِ البشري وما يترتب عليه من تعاملاتٍ وتفاعلات أسهمت في بناءِ المجتمع الإنساني، لذلك فهو أزمة بشرية خاصة على كلِ المقاييس.

وهناك من عدَّ كوفيد١٩ خطراً بيولوجياً فحسب، إلا أنه خطرٌ أكبر يواجهه كل الأفراد في المجتمعاتِ البشرية ليس في جانبٍ ما، وإنما في جميعِ الجوانب الحياتية الأُخرى (Lavell et al.,2020)، وقراءة بسيطة لما جرى منذ دخول العالم بمواجهةٍ مع هذهِ الجائحة وإلى الآن وماذا سيحدث بعد انتهائها، تُفصح عن تقلّباتٍ وتغييرات كبيرة حدثت في كلِ البنى نفسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وسياسياً وعالمياً.

من الأمور التي أماطت جائحة كورونا اللثام عنها التفاوتات الشديدة وعدم المساواة في النظمِ الصحية في جميعِ أنحاء العالم، حيث من المتوقَّعِ أن تتَّسع الفوارق في العالمِ بحسبِ عيش نسبة كبيرة من السُكَّانِ في ظروفِ دخل مُنخفضة ومُتوسطة (El-Jardali,2020,para. 9)، لقد وضعت كورونا العالم أمام اختبارات صعبة جداً، فقد ضربت بقوةٍ في عمقِ العيش البشري، الأمر الذي أدَّى إلى كشفِ مُعاناة العديد من المجتمعاتِ، وفضحت قصور الحكومات التي لم تمتلك منظومة تخطيط واسعة قادرة على عملِ مصدَّات أمان أمام الأزمات والأوبئة، وبرزت تلك الصورة واضحة عند المجتمعات التي عانت – ولا تزال - من بطشِ الحكومات الدكتاتورية والمجتمعات التي عانت من الفقرِ والجور والظلم والاضطهاد والحروب وفقدان بوصلة التميَّز. لذلك باتت الجبرية واضحة في أحد جوانبها بأنها جعلت المجتمعات الفقيرة تتدهور أكثر في ظلِ ما فرضته

عليها من ظروفٍ، في حين أن المُتقدّمة ارتبكت كثيراً بنوعِ القسر والانصياع اللازم من خلالِ تعطيل مُقدَّرات كل الحياة البشرية وأغلقت حركتها الشبكية الواسعة والتي على أساسها بُنيت تلك البشرية.

في إطارِ الجبرية التي تميَّز بها كوفيد١٩ فهو قد فرض نفسه على الجميعِ دون تمييز بين أحد وآخر ومجتمع وآخر، فمن الممكن أن يصيب ويقتل الصغار وكذلك الكبار والأغنياء والفقراء، وأيضاً الذين لديهم ظروف صحية أو لا، فهو لم يحترم العرق واللون والجنس واللغة والدين والتوجُّه الجنسي أو الهوية الجنسية أو الرأي السياسي أو الأصل القومي أو العرقي أو الاجتماعي أو الممتلكات أو الإعاقة أو أي وضع آخر (United Nation,2020a,p.10)، لذلك وضع الجميع أمام نفس التحدّيات والتي يتطلَّب عليهم الالتزام بها، فلم يصب الفقير بحسبِ ظروفه وترك الميسور حالاً، ولم ينل من المُعتلِ صحياً فحسب، وإنما جرف في تيارهِ حتى الأصحَّاء، ولم يعرف أسودَ من أبيضَ ودينًا ومعتقدًا وملة وطائفة، وإنما خص الجنس البشري بأكملهِ، فقد كان عادلاً بعدمِ تمييزهِ بين أحدٍ وآخر، وإنما أرغم البشر باختلافهم إلى مراجعةِ ما هم عليه وكشف النقاب عن تفاوتاتٍ عدة، وهنا بانت أُطر المقاومة عند الشعوب التي أعدَّت العدة لمثلِ هكذا طوارئ، والأُخرى التي كانت وما زالت خاوية على عروشها، فقد كشف زيف العديد من الأنظمة في تعاملاتها وإداراتها الهشَّة تجاه شعوبها.

أيضاً من صورِ القسر التي فرضتها جائحة كورونا هي السياسات التي اتُبعت من قبلِ العديد من الأنظمة لغرضِ تفادي اتساع نسب الإصابة بهذا الفيروس، والتي اختلفت في تفصيلاتها وتنفيذها من مجتمعاتٍ إلى أُخرى، إلا أن هناك اتفاقاً على مبدأ ضرورة عدم تمكين الجائحة من الاتساعِ بشكلٍ أكبر.

لذلك وجد الناس البسطاء أن السياسات التي تتبعها الأنظمة في ظلِ الأوبئة بالقوةِ مثل ضرورة دفن جثث المُصابين في مقابرٍ جماعية خاصة، وغلق الأسواق وإقامة المحاجر الصحية وتقليل الاجتماع في الطقوسِ والمناسبات،

فرضت تهديداً أكبر على حياةِ البشر بتوقعاتٍ فاقت المرض والوباء ذاته (واتس،١٩٩٧/٢٠١٠).

لقد واجه البشر في ظلِ جائحة كورونا سياسات أجبرتهم على اتخاذِ تدابير لازمة لمواجهةِ الجائحة، وهذهِ السياسات قوَّضت نطاق الحرية لديهم وأوقفت منسوب خططهم من الارتفاعِ وإنما السير بحذرٍ وفق خطوات محسوبة، لذلك باتوا أمام هذا القسر المفروض الواجب لإعادةِ صياغة حياتهم من جديدٍ وفق حدود ما حدَّدته الجائحة للسيرِ به.

في المجتمعِ العراقي جوبهت السياسات اللازم اتباعها لتفادي انتشار هذا الوباء، بالرفضِ والاستهزاء والتمرَّد عليها، وبالذاتِ في بادئِ الأمر عندما دُفنت بعض جثث المصابين في أماكنٍ بعيدة عن المقابرِ العامة، ورُفضت سياسات الحجر، التي عدّوها مُمارسة لإجبارٍ واضح يرافقه عدم تلبية لمُتطلَّباتِ الإنسان العراقي وبالذات من الإجراء اليوميين وأصحاب المعيشة البسيطة، بل عدَّها البعض انتهاكاً لحريةِ الإنسان، وتوقف الالتزامِ من عدمهِ بحسبِ وعي وفهم العديد في المرحلةِ الأولى من بداياتِ انتشار الفيروس في العراق، لذلك جوبهت هذهِ السياسات بمقاومةٍ تمثَّلت بالتمردِ عليها وعدم تطبيقها لأولِ وهلة.

حتى أن نسبة انتشار الأوبئة تختلف من بيئةٍ ومجتمع إلى آخر، بحسبِ الظروف المُلائمة لتكونها ومُعطيات انتشارها. يذكر الدكتور علي الوردي مثلاً أن من العواملِ التي ساعدت على انتشارِ الأوبئة سابقاً في العراق هي كثرة الأهوار والمُستنقعات وانتشار عدَّة أمراض بها، الأمر الذي يؤدّي إلى إضعاف المناعة لدى سُكَّانها، وأيضاً توالي المجاعات، بحيث إن الأوبئة كثيراً ما كانت تأتي بعد المجاعات، وكذلك العادات السيئة في تناولِ الطعام وعدم التنوّع في أصنافهِ، مما يؤدّي إلى انخفاضِ نسب المناعة والإصابة بالأوبئة، مع قلةِ العناية بالنظافةِ وتلوّث مياه الشرب وارتفاع درجات الحرارة التي تعمل على سرعةِ التعفّن وانتشار الجراثيم المرضية (الوردي،٢٠٠٥)، على أن ذلك لم يشمل

العراق فحسب، إذ دائماً ما تجد تلك الأوبئة والجوائح موطئ قدم لها في التمركزِ والاتساع في المجتمعاتِ التي تكون ظروفها مُستعدة دائماً لتقبّلها، وتلك المُعطيات التي ذكرها الدكتور الوردي لم تختلف كثيراً في يومنا هذا بوجودِ الأهوار والمُستنقعات والعادات الغذائية السيئة وتوالي الأزمات الصحية، وعدم الاهتمام بالنظامِ الصحي وضعف الوعي بخطورةِ تمركز مثل هذهِ الأوبئة على الإنسان والمجتمع.

لم تكن انطلاقة كوفيد ١٩ من ظروفِ وأزمات العراق، وإنما ساعدت تلك الظروف على اتساعِ مداه، وترافق معها ضعف النظام الصحي وتهالكه ومرور المجتمع بعدةِ أزمات لم يصحُ منها إلى الآن، بمعنى حتى البلدان الأُخرى ستُساعد ظروفها المُزرية على استفحالِ هذا الوباء وبقاءه لمدةٍ زمنية أطول، لذا فقد ترافق معه انهيارات واسعة بسببِ تعطُّل الحياة وشل حركة المجتمع واستفحال مرضي أكبر، يحتاج إلى تطويقٍ بتقليلِ مُعاناة المجتمعات من هذهِ الظروف.

لذلك فقد حدَّدت هذهِ الأزمة مسارات للبشريةِ أجبرتها على السيرِ وفقاً لها تداخلت اجتماعياً وصحياً ونفسياً وسياسياً واقتصادياً وتقنياً ومستقبلياً، وفرضت نفسها بقوةٍ فكانت قوية الأثر على المجتمعاتِ التي تُعاني في كلِ جوانب حياتها وبطيئة وخفيفة في التأثيرِ على المجتمعاتِ التي وضعت خططاً لمواجهةِ الأزمات ووظَّفت كل قابلياتها وطاقاتها لغرضِ إعداد العدَّة لمواجهةِ مثل هذه الأزمات والصراعات، فالأنظمة ذات الرؤى بعيدة المدى في التفكيرِ بمستقبلِ شعوبها قد وضعت كل تلك التناقضات نصب أعينها، لذلك أعدَّت العدَّة لها، خلاف الأنظمة التي لم تعرْ لمثلِ هذهِ القضايا أية اعتبار واهتمت بصراعاتها واستنزاف شعوبها واضمحلال طاقاتهم، الأمر الذي جعلها عرضة مع هذهِ الشعوب لكلِ تقلبات هذهِ الأوبئة وما تحمله لها من أبعادٍ.

ثانياً - التباعد الاجتماعي والتشكّل الثقافي الجديد في ظلِ الجائحة:

لعل من التدابيرِ التي فرضها تفشّي كوفيد١٩ في العالمِ، هو اتباع أساليب معينة مارست قوتها الجبرية على البشرِ الذين يبتغون تقليل أو القضاء على زخمِ هذهِ الجائحة حتى لا تتطوَّر وتستمر لمدةٍ زمنية أطول وبالنتيجةِ خسائر بشرية ومادية كبيرة، ومن هذهِ الأساليب التي وجد البشر جدية وجبرية في تطبيقها هي التباعد الاجتماعي، فهو ليس مجرد مُصطلح ممكن تطبيقه والالتزام به، بقدرِ ما هو يحمل ببواطنهِ رمزيات تأويلية كبيرة جعلت العالم في انبهارٍ وردة فعل كبرى عندما فُرض كوسيلة لتفادي الإصابة بهذهِ الجائحة.

لذلك علينا إلا نعتقد قطعاً بأن كل العالم باختلافِ ثقافاته قد طبَّق هذا التدبير المُهم بحذافيرهِ، وإنما هناك تفاوتات في نسبِ الالتزام بهِ بحسبِ تنشئة الأفراد والثقافات التي ينحدرون منها وتأثير هذا التباعد على مساراتِ منظوماتهم القيمية الثقافية وسبل عيشهم الحياتية، لذلك اختلفت نسب هذا التطبيق بين رافض تماماً له وبين التذبذب بالالتزامِ وبين التطبيق الكلي تقريباً له.

ولطالما كان هناك خوفٌ كبير في السوسيولوجيا مُتضمَّناً القلق الأكبر من الاعترافِ بدورِ العوامل الوراثية والبيولوجية في الصحةِ وعدم الاهتمام أو تقليله بالنسبةِ للعواملِ الاجتماعية (تيمرمانز، هانس،٢٠٠٨/٢٠١٨)، بمعنى عدم إيلاء العوامل الاجتماعية والثقافية أي أهمية بالتأثيرِ على الصحةِ وارتفاع مستويات الإصابة بالأمراضِ أو استفحالها واستمرارها من عدمهِ، إذ لعبت هذهِ العوامل دوراً كبيراً في إدامةِ أو الإعداد للأمراضِ واضطرابات الصحة، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن نفصل الجوانب البيولوجية والصحية عن الجوانبِ الثقافية والاجتماعية فيما يتعلق بتطورِ الأمراض والأوبئة وما يُسهم بشكلٍ واسع في استمراريتها أو القضاء عليها.

لذلك فللثقافةِ تأثير على الصحةِ والمرض، فعند النظر في الأمراضِ الجديدة والأوبئة يجب أن نُفكر في التصوّراتِ الثقافية والطرق التي قد تؤثر على كيفيةِ

التعرف على الأعراض والوصول للرعايةِ والعلاج والخوف من الوصمِ، حيث إن لكلِ ثقافة مُعتقداتها الخاصة بتفسيرِ الصحة والمرض (Bruns et al.,2020).

إن نشوء الأمراضِ والأوبئة في العديدِ من الحالاتِ ناتج عن تطبيقِ عادات وتقاليد ثقافية تؤدي إلى نشوءِ الأمراض واستفحالها، منها ما يتعلق بالبيئةِ المعيشة وأجوائها المناخية والتقاليد المُتبعة في الغذاءِ والتطبيب والعيش بشكلٍ عام، وحتى لو لم تكن تلك البيئات حاضنة لأمراضٍ وأوبئة مُعينة، فقد تنتقل لها من مناطقٍ أُخرى وتترسَّخ بها وتتَّسع بسببِ وجود التربة الخصبة لتمركزها بشكلٍ واسع، وفي المجتمعِ العراقي حيث ارتفاع السقف الثقافي بشكلٍ واسع نجد علاقة جوهرية جداً بين تكاثر الأمراض والأوبئة والأساليب الثقافية المُتبعة عند العديد من أفراده وبضمنها دخول كوفيد١٩ له، فبعد أن كان المجتمع مُسيطراً بشكلٍ كبير على خطورتهِ واتساعه، سرعان ما انتشر بشكلٍ مخيف، بسبب ما عزَّز من انتشارهِ والمُتمثل بالمنظومةِ الثقافية المُتبعة التي لا تتفق مع العديدِ من أساليبِ وتدابير القضاء على هذهِ الجائحة أو التخفيف من آثارها.

يمكن أن يكون التباعد الاجتماعي واحدًا من الأساليبِ التي اصطدمت مع ثقافةٍ تقليدية ضاربة في القدمِ عند المجتمع العراقي، القائم على الاجتماعِ وليس على الانعزالِ والتباعد بكلِ أشكاله وصوره التي فرضها كوفيد١٩.

إن التباعد الاجتماعي وبضمنهِ التباعد الجسدي، يعني الحفاظ على مساحةٍ آمنة بينك وبين الأشخاص الآخرين الذين ليسوا من منزلك، بحيث يجب مُمارسة التباعد الاجتماعي جنباً إلى جنبٍ مع الإجراءات الوقائية اليومية الأُخرى للحدِ من انتشارِ هذهِ الجائحة (para.2020,1)، وقد يكون هذا هو التحديد الاصطلاحي لهذا المفهوم إلا أنه بكلِ الأحوال لا يمكن أن نتأمَّل منه تطبيقاً جوهرياً عميقاً باختلافِ الثقافات عند كل المجُتمعات، وإنما طرحته هذه الجائحة كضابط للبشرِ يمكن عند الالتزام به أن يُزيل أو يخفف من آثارِ انتشارها بصورةٍ واسعة.

لذلك كان الغرض الأساس من هذا التدبير هو التقليل من تفاعلاتِ الحشود

ومنع انتشار المرض داخل المجاميع البشرية (Aslam,2020,para.6)، كإجراء لا بد على الجميعِ الالتزام به ، والذي تختلف نسب الالتزام به من مجتمعٍ لآخر ومن ثقافةٍ لأُخرى.

إن التباعد الاجتماعي كان سياسة فعَّالة لمُكافحةِ الإصابة بهذا الوباء ومنع انتشاره، لذلك كان على الأنظمة أن تتعامل مع هذا التدبير من زاويةِ توافقه مع الثقافةِ المعيشة أو لا، وبالذات في المجتمعاتِ المُنغلقة التي تكون للمنظومةِ القيمية الثقافية فيها سطوة في إدارةِ سلوكيات وتدابير وفعاليات ومُمارسات الحياة، إلا أن الوقت لم يسمح لتدارك تلك المسألة عند كل الأنظمة، كما وأنه لم يتوافر تدبير أكثر أماناً وجدّية في التعاملِ مع هذا الوباء، وبعد مضي مدة من الزمنِ على الانتشارِ الواسع له بدأت الحكومات بالتفكيرِ مع منظمةِ الصحة العالمية بالتعايشِ مع الجائحةِ، لعقمِ الحلول حتى مع تطويرِ لقاح له حتى الآن، ولضروراتٍ حياتية لاربد من اعتمادها لاستمراريةِ الحياة.

والعراق حاله حال العديد من تلك الدول التي لم تجد غير هذهِ الوسيلة كتدبير آمن لتفادي أضرار هذا الوباء منذ بدايات انتشاره وإلى الآن، الأمر الذي أدَّى إلى اصطدامهِ بالقاعدةِ الثقافية الواسعة التي تُحرَّك المجتمع وتتحكَّم بمُقدَّراتهِ قيمياً، لذلك طرأ هذا التدبير على مسامعِ المجتمع العراقي كإجراء احترازي ضد المرض إلا أنه لم يُقابل بوعيٍ أكبر يتمثل بمعرفةِ أهميته وضرورة تطبيقه، وما يمكن أن تؤول إليه الأمور في حالِ عدم الالتزام به، على الرغم من محاذير أو استحالة تحقيق وتطبيق هذا الإجراء في مجتمعٍ ذي عمقٍ ثقافي قيمي ضارب في القدمِ، الأمر الذي جعل مسألة الأخذ به مُتذبذبة ومُتفاوتة من مكانٍ إلى آخر، ومن أُسرةٍ إلى أُخرى بحسبِ تقبّلها ووعيها لخطورةِ الوباء وما يمكن أن ينجم عنه من أضرارٍ.

فمنذ أن أعلنت منظمة الصحة العالمية بأن كوفيد١٩ جائحة عالمية في ١١ مارس ٢٠٢٠، فرضت العديد من الحكوماتِ تدابير التباعد الاجتماعي والقيود

الصارمة على حركةِ الناس وحظر التجوال وفي بعضِ الحالات عمليات الإغلاق التام، حيث أغلقت الشركات والبنوك والأسواق والخدمات العامة والمدارس كلياً أو جزئياً، الأمر الذي أدَّى إلى توقّفِ الحياة بأكملها وخسائر كبيرة في الإيرادات والوظائف(Food and Agriculture Organization ,2020,p.1).

يمكن القول: إن دخول التباعد الاجتماعي كوسيلة للحدِ من كوفيد١٩ في العراق جوبه في بدايةِ الأمر بنوعٍ من اللامبالاة وتكذيب أصل الوباء، والركون إلى نظريةِ المؤامرة، وأن كل ذلك لعبةٌ ومؤامرة سياسية هدفها القضاء على طقوسنا ومُكتسباتنا وسيادتنا ومُحاربة قيمنا وعاداتنا وتقاليدنا، فضلاً عن أنها استنزاف لقوتِ الفقير من البروليتاريا والطبقات المحرومة الرثة، وأرجع العديد من أفرادِ المجتمع العراقي هذهِ الأزمة إلى أجندةٍ من أجنداتِ أمريكا ومن حذا حذوها من الدولِ التي تُريد الاستحواذ على العالمِ، وقد قابلوا هذا التدبير وضرورة تطبيقه بعدمِ الجدّية والتمرد عليه وعدم الانصياع لوجودِ وباء بالأصلِ، بحسب الدراسة الاثنوغرافية في المدن التي تم تحديدها سابقاً.

أما الذين آمنوا بوجودِ الوباء فقد أرجع العديد منهم ضربه لأكثرِ المجتمعات إلى الأمور الغيبية وارتباطها بالله تعالى وعقوبته لكلِ ظالم وجاحد وغير عادل ومُضطهد وكل الأفراد غير الصالحين من الذين أثاروا غضب الله تعالى، وبأنه وفق هذا الأساس لا يصيب الصالحين وإنما فقط الظالمين والطُغاة وكل من خالف أوامر الخالق ودينه، حيث لا يجدي معه أي لقاح أو دواء، وإنما هو إرادة إلهية وسيُزال بوقتٍ ما، وعندما بدأ الوباء يستفحل وينتشر شيئاً فشيئا في أغلبِ محافظات المجتمع العراقي وبالذات العاصمة بغداد، اصطدم أفراد هذا المجتمع بتدبيرِ التباعد الاجتماعي الذي لا يتفق جملة وتفصيلاً مع طقوسِ وعادات وقيم هذا المجتمع الذي نشأ تقليدياً على توارثِ المنظومة التقليدية الثقافية القبلية القيمية، والتي تقوم على التفاخرِ بالمناسبات التي تجمع العديد من الناسِ والكرم والضيافة والحضور في الأفراح والمآتم المطلوب كقيمة ثقافية تدل على الغيرةِ

والنبل والشهامة والتكاتف، فوجود مثل هذا التدبير يعني تسطيح كل هذهِ القيم والموروثات دون القيام بها، وبخاصةٍ العديد منها يُمارس تفاعلاتياً يومياً كحضور المقاهي والنوادي وأماكن الترفيه والزيارات الشخصية بأنواعها كزيارات المرضى أو الأقارب والأصدقاء وقضاء الأوقات وغير ذلك، بحسب ما تم ملاحظته وأخبرنا به المبحوثون.

بعد ذلك أصبح هناك يقين بوجودِ الوباء نوعاً ما في المجتمعِ العراقي، لكن عدم جدوى تطبيق التباعد الاجتماعي في مجتمعٍ قائم على التلاحمِ والاندماج والتعايش الجماعي دون الانعزال والتصرّف بفرديةٍ، وبالذات تعارض هذا الإجراء مع القوتِ والاكتساب المعاشي اليومي للعديدِ من الطبقاتِ المحرومة الفقيرة، التي وجدت نفسها دون عمل ودون إجراء حكومي حقيقي يعوّضها مدَّة الحجر والتباعد وعدم الخروج لكسبِ لقمة العيش. الأمر الذي دفع العديد من مُتضرّري هذا الوباء من الفقراءِ إلى عدمِ الالتزام قطعاً بشيءٍ اسمه التباعد الاجتماعي والحجر الصحي رغم فترات الحظر ومنع التجوال، فكانوا مُجبرين على الخروجِ أغلب الأوقات بعد الفترات الأولى من حظرِ التجوال ليتعايشوا جماعياً ويعملوا باضطراريةٍ واضحة للحصولِ على القوتِ اليومي.

لقد أثَّرت مقاييس التباعد الاجتماعي على المشاركةِ بالعديدِ من الأنشطة، حيث بقي الكثير من الناسِ عاطلين عن العملِ مؤقتاً أو يعملون من داخلِ المنازل، بعد أن تم إلغاء مُعظم الأنشطة خارج المنزل (Vos,2020)، بحيث التزم عددٌ كبير من موظفي الدولة في المجتمعِ العراقي بهذا الإجراء بالتباعدِ الاجتماعي الذي يشمل عدم الحضور والاختلاط في دوائرِ الدولة وأماكن العمل الرسمي، على أن الالتزام بهذا التباعد بالنسبةِ لهم غير دقيق بنسبةٍ كبيرة وهناك أيضاً تذبَّذب بتبنَّي مسألة الوباء والقناعة به. وقد حدث ذلك في بداية الوباء حيث بدأوا بإدارة أغلب أعمالهم من داخلِ المنزل وفق أُطر العمل الإلكتروني الذي دأبت عليه أغلب دول العالم ولو مؤقتاً لحين انتهاء الأزمة، على إلا يُغادر بشكلٍ

نهائي وإنما له أهمية كبيرة في التعاملِ سواء في الإدارة أو التعليم أو الصحة والاقتصاد ومجالات الحياة الأُخرى، إلا أن تم بعد ذلك التعامل مع التباعدِ الاجتماعي بالخروجِ للعملِ بنسبةٍ معينة مع إبقاءِ مسافة بين شخص وآخر تصل إلى مترين والاحتفاظ بإجراءات الوقاية الأُخرى.

إن تدبير التباعد الاجتماعي الذي يرُكّز على تقليلِ الاتصال الجسدي كوسيلة لمنعِ انتقال العدوى، هو ليس هدفاً مُحدَّداً، حيث إن نجاح تدابير التباعد الاجتماعي تعتمد على ضمانٍ أن الناس يتواصلون عن بعدٍ مع الأصدقاء والزملاء والأقارب (European Centre for Disease Prevention and Control,2020,para.14)، وعلى هذا الأساس يمكن القول: إن التباعد الاجتماعي لم ينجح بنسبةٍ كبيرة في المجتمعِ العراقي حتى الآن، لأن الأساس الذي يعتمد عليه وهو تقليل الاتصال والتلامس الجسدي لم يتحقَّق فعلياً أو بنسبٍ عالية، وإنما شهدت بعض المناطق الالتزام الذي لا بأس به لكن في مناطقَ أُخرى لم يكن هناك إيمان نهائياً بوجودِ الوباء، فكيف يتم تطبيق هذه الوسيلة أو الإجراء؟ وخاصة في المراحلِ الأولى من دخولِ الوباء الذي أثار الكثير من اللغطِ الشعبي حوله ممزوجاً بعدمِ الوعي بمخاطرهِ وعدم دراية وتمسّك بموروثاتٍ ونظم ثقافية، وإرجاع ذلك لأمورٍ غيبية، أسهم ذلك كله في التأرجحِ في تحقيقِ نجاح هذه الوسيلة. أيضاً أسهمت إجراءات الحكومة الإرشادية فحسب أو التلويح بالعقابِ عند عدم الالتزام بالتباعدِ الاجتماعي أو الحظر المفروض، في التهاونِ في تطبيقِ هذا التدبير، إذ لم تُقدِم الحكومة على اتخاذ إجراءات عقابية جدّية حقيقية بحقِ المُخالفين، لأنها لم توفر مُقابلاً يُحرّض المواطن وبالذات من ذوي الدخول المنخفضة على البقاءِ في المنازلِ بتوفيرِ كافة احتياجاتهم، ولم تعمل على التعريفِ بصورةٍ كبيرة بمخاطرِ هذا الوباء وضرورات تكييف القيم بما يتوافق وهذا الإجراء، فقط منعت بشكلٍ واسع إجراء المآتم في الطُرقاتِ العامة كما كان معمولاً به سابقاً كجزء من الطقوسِ الثقافية عند وفاة أحد الأفراد، وأيضاً منع الحفلات العامة في الأفراحِ والمناسبات

الأُخرى، فضلاً عن قصور الوعي الكبير بمخاطرِ هذا الوباء وما يمكن أن ينتج عنه، وقد لا يختلف ذلك عن بعضِ المجتمعات العربية بتقارب النظم الثقافية والموروثات والغيبيات والتمسك بها.

في الواقعِ لكلِ بلدٍ طريقته الخاصة بتنفيذِ التباعد الاجتماعي، فعلى سبيل المثال يستعمل الروس العقوبات المالية لمن لا يتّبعون التعليمات، والفلبين والهند تعتقل أولئك الذين ينتهكون مُمارسات التباعد الاجتماعي، وبعض الدول تستعمل وسائل الإعلام لنشرِ سياستها لحثِ الناس على التباعدِ الاجتماعي (Huynh,2020)، ويمكن أن تكون تلك الطرق قد اختلفت بحسبِ درجة اتساع انتشار الوباء وخطورته عليهم ودرجة الوعي التي يتمتع بها أفراد المجتمع وانصياعهم تلقائياً لتطبيقِ هذا الإجراء، وقلة سطوة الأحكام القيمية والموروثات على سلوكياتِ الأفراد في التعاملاتِ الحياتية المُختلفة. ففي العراق مثلاً استُعملت بعض الإجراءات بدايةً من قبيلِ مثلاً إلقاء القبض على بعضِ المُتجاوزين على فتراتِ الحظر، وكذلك مُخالفة شروط التباعد، لكن ليس بجديةٍ كبيرة وإنما شكلية وبشكلٍ طفيف، حتى أن التراخي نوعاً ما في تشديدِ هذهِ الإجراءات أخرج لنا فئة المُتهاونين الذين أثَّروا بشكلٍ واسع على انتشارِ الوباء بأيامٍ قياسية، لغيابِ الحساب وعدم الالتزام بتعليماتِ خلية الأزمة العراقية، وأيضاً بسببِ عدم توفير ما يؤمّن عيش المواطن بمقابلِ الحجر، وكذلك عدم توافق قيم المجتمع وعاداته مع ما يطلبونه والتي تُعد عندهم مثلبة بحقِ المنظومة القيمية وتُمثل انتكاسة لقيمِ الشرف والضيافة والتكاتف والنخوة والشجاعة والتعاون عند التباعد وعدم الاجتماع المعمول به كسُنَّة من سُننِ التعاملات اليومية.

لقد أسهمت الأساليب الثقافية المُتبعة كالتحيَّة مثلاً بمصافحةِ اليدين أو التقبيل على الوجهِ في سرعةِ انتشار الوباء، حيث أوصت العديد من البلدانِ بتجنُّبِ هذهِ الأشكال التقليدية وتشجيع الأفراد على استبدالِ هذهِ العادات (Bruns et al.,2020)، على أن هذهِ التوصيات لا تنفع مع مجتمعٍ مثل المجتمع العراقي

صاحب هذهِ الأساليب التي يستعملها بشكلٍ كبير في كلِ اجتماعات ولقاءات أفراده في المناسبات والزيارات، لذلك كان من الصعوبةِ تطبيق الاستغناء عنها بهذهِ السرعة وببساطةٍ، رغم بدء التقليل منها بعد اشتداد انتشار الجائحة، إلا أنها عادت مرة أُخرى لكن ليس بشكلٍ كبير وفق ما تمَّت ملاحظته بين الناس، بالإيعاز إلى أنهم مجتمع صاحب قيم وعادات ثقافية قد تم توارثها من أجيالٍ سابقة ولا يمكن الاستغناء عنها بهذهِ السهولة، في حين أن المرحلة تطلَّبت تشكّلاً ثقافياً جديداً يختلف عما كان مُتفق عليه، إلا أن المسألة لم تنجح بشكلٍ مُطلق فلم يتم استحداث أنماط جديدة إلا بشكلٍ مؤقت على سبيلِ المثال التوقف عن المُصافحةِ في بعضِ الأحيان وإيقاف طقوس العزاء والأفراح لوقتٍ مُحدَّد لحين انتهاء الجائحة أو العودة لها مرة أُخرى وربما بشكلٍ أوسع حتى وإن لم تنته الجائحة، والعديد استمروا بالمصافحةِ والتقبيل وحضور التجمّعات في داخلِ المنازل وخارجها ومنها إقامة مجالس شهر مُحرَّم والمواكب الحسينية وإن كانت قليلة، وإقامة المسابقات الرياضية الشعبية وغيرها من المسائلِ الأُخرى، وقد لا يختلف ذلك أيضاً في العديدِ من المجتمعات، فالأمر ليس حكرًا على العراق وحده، وسجَّلت الإصابات بكوفيد١٩ أعدادًا بسيطة في باديءِ الأمر في العراق، مثلاً في الشهرِ الخامس ٢٠٢٠ كانت الإصابات في أحدِ الأيام ٦٨ إصابة وحالة وفاة واحدة، وفي ١٣ من الشهر ذاته ارتفعت الإصابات إلى ١١٩ إصابة، وفي ١ حزيران تم تسجيل ٤٢٩ إصابة، وفي ٦ آب تم تسجيل ٢٥٨٣ إصابة، وفي ٢٢ آب تم تسجيل ٢٩٤٧ إصابة، وفي ٢ سبتمبر تم تسجيل ٣٧٣٢ إصابة، وفي ١٣ تشرين الأول سُجّلت ٣٩٢١ إصابة، وفي ٣٠ تشرين الأول سُجّلت ٢٨٧٨ إصابة، وفي ٢٢ تشرين الثاني سُجّلت ١٧٦٦ إصابة، وفي ٢٦ كانون الأول سجلت ٨٣٦ إصابة ، وهكذا انخفضت الإصابات ثم عاودت بالارتفاع بدخولِ الموجة الثانية من الوباء.

من الأمورِ التي أحكمت المنظومة الثقافية عليها قبضتها في ظلِ كوفيد١٩، هو الالتزام بالتقاليدِ المُتبعة ومنع النساء والفتيات المُصابات بهذا الوباء من طلبِ

العلاج، بسببِ المحظورات الثقافية والدينية وما يرتبط بها من شرفِ العائلة (United Nations,2020b)، وفعلاً لوحظ في المجتمع العراقي أن العديد من الأُسرِ تُبقي مسألة إصابة أحد أفرادها بفيروسِ كورونا سراً، لما يلحق هذهِ الإصابة من ضروراتِ الابتعاد عن الشخصِ وعدم القرب منه أو حتى عدم التعامل مع أُسرته خوفاً من الإصابة، والذي عدّوه انتقاصاً من مكانتهِ ومنزلته، فكيف الحال بالأنثى، فالأمر عومل بتكتّمٍ كبير عليها، على الرغمِ من ورودِ حالات إصابة عديدة من النساءِ إلى المُستشفياتِ، لكن الأمر ليس واسعاً بالدرجةِ التي يمكن توقّعها، حيث توجد إصابات غير مُعلن عنها بسببِ الأعراف التقليدية المُتبعة، وتضاربت نسب تلك الحالات التي دخلت للمستشفى أو التي بقيت في المنازلِ تتلقى العلاج، بحيث لم يتم الإفصاح حتى عن عددِ النساء المُصابات ممن دخلن المُستشفى بطلبٍ من الأهالي، لذلك اختلفت الإحصائيات في بداية دخول الوباء.

لعل أكثر الناس الذين تضرَّروا من هذهِ الأزمة هم الذين واجهوا تحدّيات هائلة، فمسألة غسل الأيدي بانتظامٍ ليس خياراً ثابتاً لهم، لأنهم لا يحصلون على الماءِ الكافي، والتباعد الاجتماعي والمسافة الجسدية حلمٌ بعيد المنال بسببِ الاكتظاظ السُكَّاني، إذ إن الفقر بحدِ ذاته عامل خطر هائل (United Nations,2020c)، وبشيءٍ لا يقبل الشك فإن من تضرَّر بشكلٍ أكبر هم الشرائح الواسعة من الفقراءِ والمعوزين في المناطقِ المُكتظة التي تعيش على قوتِ يومها، والتي هي غارقة بنظامٍ قيمي تقليدي ثقافي، فلم ينفع معها شيئاً اسمه التباعد الاجتماعي وهم يعيشون في أماكنٍ مُتلاصقة مع بعضها البعض بمساحاتٍ صغيرة جداً للمنزلِ الواحد ضمن بيئة حياتية تنقصها العديد من عوامل العيش المُرفه والمناخ الصحي، مع غيابِ السيولة المادية للكثيرِ لتوفيرِ المُستلزمات الأُخرى من كماماتٍ وقفَّازات، فالفرد لا يكاد يحصل على ما يسد بهِ رمق عيشه، فلا يمكن تبذيره وفق رأيه على كمامةٍ وقفَّاز، لذا فالفقر آفة تعاضدت مع كورونا في زيادةِ مُعاناة فقراء المجتمع العراقي، في أجواءٍ لم تعتد كثيراً بمسألةِ التباعد

الاجتماعي والاحتكام له، لذلك لم يتنمَّطوا وفق الجبرية التي فرضتها هذهِ الجائحة وإنما أرغمتهم منظومتهم الثقافية على عدمِ الانصياع لها، وأيضاً ظروفهم الحياتية التي أجبرتهم على عدمِ الانسلاخ من ثقافتهم وما ألحقته بهم هذهِ الأزمة.

لقد واجهت البشرية تحدياً هائلاً، فقد أثَّرت أزمة كوفيد١٩ على كلِ أبعاد حياة البشر الصحية وأنظمة العمل والتفاعل الاجتماعي والنقاش السياسي واستعمال الأماكن العامة، والاقتصاد والبيئة، وأثَّرت على الحياةِ الثقافية بشدةٍ، فقد أغلقت المكتبات والمراكز الثقافية والمتاحف أبوابها وأُلغيت العروض والمهرجانات والاستعراضات والكرنفالات (Un Habitat,2020)، أي أنها حاولت إعادة تشكيل الحياة من جديدٍ وبضمنها الحياة الثقافية من خلالِ فرض سطوتها وتدابيرها على البشرِ، وفعلاً أُتبعت هذهِ الإجراءات في العراق لكن بشكلٍ بسيط بإجراءاتٍ حكومية استمرَّت لفتراتٍ معينة ووفق توقيتات مُحدَّدة رغم هشاشتها في التطبيقِ، لكن وفق ما لوحظ بدأت بعض المُمارسات الحياتية تعود بالتدريجِ دون إعارة أي أهمية لهذهِ التدابير وربما لاختلاطِ الأمور على الفردِ العراقي حول واقع الوباء أو الاستهانة بالمصيرِ وما سيحدث.

حيث إن من الأمورِ التي أسهمت بالشعورِ بالرضا عن الذاتِ وإهمال خطورة فيروس كورونا هو الشعور العميق بين العديد من أفرادِ المجتمع العراقي بأنهم رأوا الأسوأ من ذلك(enabling peace in Iraq center,2020) ، إذ بسببِ ما تعرَّض له الفرد العراقي على توالي الأزمنة من أزماتٍ ألمَّت به وتفاقمات عمَّقت من جراحهِ جعلت منه لا يهتم بشكلٍ كبير للمآسي والكوارث التي تحل بحياتهِ، فعلى حد تعبير البعض بأنهم في كلِ الأحوال معرَّضون للموتِ سواءً في دخولِ أزمة كوفيد١٩ أو بدونها، فهم ابتلوا بالحروبِ والمُفخَّخات والأزمات بشتى أنواعها، فلا يزيد هذا الوباء من شيءٍ، فبكلِ الأحوال هو موتٍ مُستمر، لذلك حتى قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم لم يُعد تشكيلها بشكلٍ كبير في ظلِ هذه الأزمة، بحيث أدَّى الأمر إلى تركها والانسلاخ عنها، وإنما عدم إعارة أي أهمية

للوباءِ رغم كل مخاطره. وهذا حقيقة شعور باليأسِ وعقم الإجراءات الحكومية لتغييرِ واقع الفرد العراقي، لذلك فالأمور جميعها لديه سواسيه، فضلاً عن إيمانِ العديد منهم بالغيبياتِ والقدريات والفقر الشديد وتردّي الأوضاع الحياتية وتوالي الأزمات جعل منهم ينظرون للأمورِ بنوعٍ من الاستسلامِ والاستخفاف بمُقدَّراتهم لأنها لديهم مُتأزّمة ولا يمكن أن يكون الحال أسوأ مما هو عليه الآن.

لقد اصطدمت جبرية هذا التباعد الاجتماعي بقوةِ القيم الاجتماعية الثقافية لدى المجُتمع العراقي، فأجبرت هذهِ المنظومة القيمية على الانزواءِ قليلاً لكن ليس بشكلٍ نهائي وقاطع لكثيرٍ من المُسبِّبَات التي أشرنا لها سابقاً لكنها بنظرِ أفراد المجتمع العراقي قهرت هذه المُنظومة حين أوقفتها عدداً من الشهور بشكلٍ غير مُبالغ فيه، ولا نعرف إلى أي مدى ستبقى هذهِ الإجراءات رغم بساطتها، حيث إن الجائحة بتأثيراتها لم تنته إلى الآن، فبكلِ الأحوال شكَّلت هذهِ الجائحة وأساليبها الاحترازية ومن ضمنها التباعد الاجتماعي ضربة للقيمِ التقليدية الموروثة المُتَّبعة، وإن كانت ليست قاصمة للظهرِ بسبب تمييعها من قبلِ الأفراد، لكن نتيجة هذا التمييع وعدم الاعتراف بها هو ازدياد عدد الإصابات واستفحالها واستمرارية بقائها حتى الآن بأعدادٍ كبيرة جداً، مع ضعفِ الإمكانيات الصحية وضعف الاستعداد للتوافقِ مع هذهِ التدابير. ويمكن الإشارة إلى أن المنظومة الثقافية الضاربة في القدمِ لا يمكن الاستغناء عنها بين ليلة وضحاها بمجردِ حدوث أمرٍ طارئ، وإنما قد يحتاج الأمر إلى فتراتٍ زمنية أطول لاستنباطِ أنماط وأساليب ثقافية جديدة تتناسب وهذهِ الاحترازات، لكن وفق ما لوحظ كوصف لحالةِ المُجتمع العراقي، فلم تؤثر هذهِ الجائحة بشكلٍ أكبر على المنظومةِ القيمية، على الرغم من أنها وجَّهت لها ضربة في الصميمِ وقهرتها بدايةً بمنعها من السيرِ وفق منطلقاتها، حيث من المرجَّحِ أن تعود تلك المُمارسات وبنفسِ القوة بعد انتهاء الجائحة، بل عاد الكثير منها ولا يمكن أن يكون هناك تنازل عن بعضِ أساليبها بحسبِ ما أدلى به العديد من الأفراد. لكن من المُمكنِ أن يكسب ذلك المجتمع أساليب ثقافية بديلة عند مروره بمثلِ هكذا أزمات يستعيض بها مؤقتاً

عن أساليبهِ الثقافية في الحياةِ اليومية. واليوم على الرغم من تزايد الإصابات أصبح هناك نوع من الاقتناعِ بهذهِ النتيجة لدى الفرد العراقي، وعدم الاكتراث كثيراً للصعودِ والهبوط في مُعدَّلاتِ الإصابات يومياً، وحتى عدم اللجوء إلى أوضاعِ التعايش معه، لأنهم لم يعتقدوا به وبإجراءاته حيث ظهر ذلك واضحاً عند العديد من الأفراد.

ثالثاً- صدمة التغيير المفروض ومآلاته في ظلِ الجائحة :

إن التغيير القسري الذي فرضته جائحة كورونا خلَّف وسيُخلّف العديد من المآلات في المستقبلِ، خصوصاً أن الجائحة لم تنته بعد، ولا يمكن تطويق كل التغييرات التي نتجت عنها، وإنما ملاحظة ما نتج إلى الآن رغم استمرارها في التفشّي، وحتى وإن كانت تلك التغييرات بسيطة أو كبيرة وواسعة جداً فهي مارست قسراً وجبرية واضحة على المجتمعاتِ البشرية، الأمر الذي شكَّلت معه صدمة لكلِ البشر، فبعد أن كان الإنسان يصول ويجول في كلِ أنحاء المعمورة وجد نفسه حبيساً بمنزلهِ أو مُرغماً على ذلك، حتى وإن لم يقتنع بوجودِ الوباء، وفجأة تعطَّلت كل مصالحه وأُغلقت طرق التواصل الأساسية بشكلٍ واسع، مما جعله يعيد حساباته أو التفكير بطرقٍ أُخرى للتكيّفِ أو التعايش أو على الأقل النفاذ من هذهِ الجائحة أن استمرَّت لفتراتٍ أطول.

على الرغمِ من أن الأوبئة العالمية كانت تمثل خطراً يلوح في الأفقِ لعقودٍ من الزمانِ، فقد جاء كوفيد ١٩بمثابةِ صدمة للمجتمعِ والأنظمة الصحية والاقتصادات والحكومات في جميعِ أنحاء العالم، وفي خضمِ التحديات غير العادية وعدم اليقين والمآسي الشخصية التي لا حصر لها باتت هناك ضغوط مُمارسة حول اتخاذ القرارات عن الوباءِ وعواقبه (World Economic Forum,2020,p.6)، نعم هو صدمة جعلت العالم يقف مذهولاً لما حدث وكيف انحسرت كل نشاطاتهِ وانغلق على ذاتهِ يخشى فيروس لا يُرى بالعينِ المُجرّدة ولا يعرف كيف ستؤول إليه الأمور وما هو مستقبله بعد انتهائه، وكيف ستكون

الأمور الحياتية وهل ستستعيد بريقها من جديدٍ، وهل من ضروراتٍ حقيقية للحجرِ والتباعد الاجتماعي، وهل يسير الأمر إلى ضروراتِ التعايش مع الوباءِ وخاصة بدخولِ موجات جديدة منه، رغم التوصل لبعضِ اللقاحات؟ كل هذه الأسئلة طُرحت في ظلِ هذهِ الجائحة من هولِ الصدمة التي أصابته جرَّاء ما فرضتهُ عليه.

لعل من المُفارقاتِ التي يمكن ذكرها أن هذا الوباء قد هاجم شيئاً واحداً أثمن ما في الحضارةِ الحديثة وهو حرية الإنسان، حيث اتسم أسلوب البشر في معظمِ أنحاء العالم بالحرياتِ الفردية والاجتماعية التي من أجلها خاضت البلدان حروباً وفازت بها بعد تقديم تضحيات باهظة الثمن، ولم تستطع الانقلابات والإرهاب من تغييرِ طريقة الحياة بشكلٍ أكبر مثل ما فعله فيروس كورونا (Sharfuddin,2020,p.248)، فقد وجد الإنسان نفسه بين ليلة وضحاها حبيس المنزل بصورةٍ جبرية، وهذا الحجر المنزلي ألغى مُمارسات عدَّة منها ما يتعلَّق بالتعوَّدِ اليومي على الخروجِ من المنزلِ للعملِ أو الدراسة والسياحة أو قضاء الحاجات الأُخرى، وانحصرت العديد من المُمارسات الأُخرى في المنزلِ وتمَّت تأديتها من خلالهِ، الأمر الذي قلَّص رقعة الانتشار الواسع للبشرِ بوضعهم في أماكنٍ مُحدَّدة دون التوسَّع والسير في كلِ مكان، وعلى هذا الأساس أيضاً تقلَّصت العديد من الطقوسِ وبعضها أُلغي مؤقتاً وربما ثقافات أُخرى لا تمارسها بعد انتهاء أزمة الوباء، وأكثر شيئاً نال من أفرادِ المجتمعِ العراقي هو الحجر المفروض الذي سلبهم حرّياتهم وبالذاتِ في الأيامِ الأولى من إقرار حجر المناطق السكنية، رغم أن العديد من الأفراد لم يلتزموا بشكلٍ كبير بهذا الحجر والتباعد، ومع ذلك شكَّل لهم تغييراً بما اعتادوا عليه وصدمة لتمثّلاتهم الثقافية التي اعترت بعض معاييرها على الرغم من عدم الانصياع للانسلاخِ منها إلا بالنسبةِ البسيطة.

إن التغيير الذي ترافق مع أزمةِ كوفيد١٩ في المجتمعِ العراقي وإن كان ليس بالتغييرِ الكبير بسببِ عدم الالتزام بتدابيرِ الحجر الصحي وعدم التخلّي بشكلٍ واسع عن المُمارسات والطقوس والتفاعلات الثقافية، هو تغيير قهر المنظومة الثقافية بحدِ ذاتها في مجتمعٍ لا يمكن بأي حالٍ من الأحوالِ تغيير ما يعتقد به أو يتوارثه ويُمارسه من أنظمةٍ ثقافية مُتعدّدة، لقد أُلغيت أو تقلَّصت كل مناسبات الاجتماع البشري في العراق إلا بشكلٍ قليل في الأفراحِ والأحزان والتجمّعات الأُخرى، وبقيت أماكن الضيافة والكرم فارغة بهذهِ الجائحة وضُربت ممارسات الاتصال الاجتماعي التي تُعرف بأنها قوية في المجتمعِ العراقي أثناء دخول الجائحة له، فلم تُمارس القيم العشائرية وفق أصولها لتداعياتِ الوباء، وتأجَّلت أو أُلغيت الطقوس الدينية نوعاً ما إلا على نطاقٍ ضيق في الوقت الذي كانت تشهد اجتماعات بشرية كبيرة سابقاً، إلا أنه بعد ذلك مرَّت عدّة مناسبات دينية كالزيارات إلى المراقدِ المُقدَّسة، حيث مورست بها الطقوس وإن كانت ليست بالنسبةِ الكبيرة بعد التراجع الكبير في الالتزامِ بالإجراءاتِ الصحية الذي كان في الأصلِ بسيطاً جداً، مثل طقوس عاشوراء وشهر مُحرَّم الحرام وزيارة أربعينية الإمام الحسين عليه السلام، حيث تزايدت نسبة غير المُلتزمين بالوقايةِ من هذا الوباء، وشكَّل ذلك كنوع من التحدّي والاحتجاج على منعِ مُمارسة الطقوس، فعادت هذه المُمارسات وإن كانت ليست كالسابق في ظلِ تصاعد رهيب للإصابات، وذلك بحدِ ذاته على الرغم من انحساره في بادئِ الأمر ثم عودته للظهورِ والمُمارسة مرة أُخرى، فقد هزم هذهِ المنظومة الثقافية وجعلها تهتز نوعاً ما.

لقد أصاب كوفيد ١٩ المنطقة العربية في وقتٍ واحد، حيث أبرز الوباء تفاوتات عميقة وقُدرات غير مُتكافئة للنظمِ الصحية، ومستويات تقديم للرعايةِ الصحية تختلف من بلدٍ لآخر(United Nations,2020,p.6) ، بل صُدِمت بعض المجتمعات من جرَّاءِ ما ظهر من هشاشةٍ واضحة لأنظمتها الصحية وخراب مؤسَّسي لم يستطع مقاومة أو مُجاراة هذا الوباء بشكلٍ يستطيع معه التقليل من

آثاره أو إعلان الانتصار عليه.

إذ كشفت الجائحة عن ضعفِ النظم الصحية في العالمِ، وفي العالمِ العربي حيث تُعاني النظم الصحية بالفعلِ من إجهادٍ بسببِ النزاعات المُسلَّحة والسُكَّان النازحين، ومن المتوقعِ أن يُزيد الوباء من تفاقمِ الهشاشة وتعميق نقاط الضعف، حيث سيكون له عواقب صحية واقتصادية خطيرة لسنواتٍ قادمة(El-Jardali,2020)، وأيضاً عرَّى هذا الجانب نقاط الضعف في المجتمعِ العراقي من ناحيةِ الجانب المؤسَّسي الخدمي وهشاشة النظام الصحي، بعدما مر ويمر به المجتمع من أزماتٍ أثقلت كاهله وأثَّرت بشكلٍ كبير على أبعادِ حياته ومن ضمنها الميدان الصحي الذي يعاني ضعف التمويل والبنى التحتية والتطوَّر الطبي والصحي، فضلاً عن المنظومةِ الثقافية والمُمارسات التقليدية الثقافية التي لعبت دوراً في تراجعِ الصحة وترسَّخ ازدياد الوباء بشكلٍ واسع، من خلالِ عدم الالتزام بالتدابيرِ الوقائية والتمسَّك بالعرفِ الثقافي والاجتماعي دون تركه ولو مؤقتاً، كل ذلك أدَّى إلى تدهورِ الصحة والجانب الصحي بشكلٍ واسع.

في مساراتِ التغييرات المفاجئة ومن ضمنها الثقافية يمكن القول: إن كوفيد ١٩ لم يُدمّر بدخولهِ المساكن أو البنى التحتية بقدرِ ما هو تجسَّد كخطر أساس تمثَّل بارتفاعِ مُعدَّلات الوفيات والإصابات والزيادات المفاجئة في الضغطِ على الأنظمة الصحية وانهيارها وشلل الأنشطة الاقتصادية والخدمات الاجتماعية (Lavell et al.,2020)، وفعلاً ساد هذا الخطر في العراق بتزايدِ الإصابات وارتفاع مُعدَّلات الوفيات بشكلٍ كبير على الرغم من تقاربه في النتائجِ نوعاً ما مع الفتراتِ السابقة، فالعراق ما زال يعيش حالة من الفوضى الحياتية تمثَّلت بانهياراتٍ سياسية وأمنية وعسكرية واقتصادية واجتماعية، راح ضحيتها أعداد كبيرة من هذا الشعب بانتكاساتٍ وكوارث باتت مشهداً مألوفاً لدى المواطن العراقي، لذلك لم يتأثر كثيراً بالوباءِ ومآلاته، وعلى هذا الأساس رفض بشكلٍ كبير تغيير العديد من مُمارساتهِ التقليدية الثقافية التي تُشكّل جزءاً من منظومتهِ الثقافية.

كانت الحالات المُبكّرة من كوفيد ١٩ في العراق مرتبطة بالوافدين من إيران المجاورة، ومع إدراكِ أن النظام الصحي لن يكون قادراً على ردِ هذا المرض أغلقت السلطات الحدود بسرعةٍ، والمدارس والمناطق العامة والمطارات وإلغاء الحضور في الأعيادِ الدينية (Humanitarian programme cycle,2020,p.5)، على الرغم من أن هذا في بدايتهِ عُد انتهاكاً قيمياً واضحاً من جماهيرِ الثقافة الشعبية في مجتمعٍ ضارب القدم في التراثِ التقليدي والقيم القبلية والدينية والموروث القيمي، وباتساعِ خطورة الوباء لم يحدث تخلٍّ عن هذهِ الممارسات الثقافية نهائياً ، وإنما تراجع بشكلٍ بسيط أو تأجيلها نوعاً ما، لقوةِ هذهِ المنظومة الثقافية وعدم الوعي الجاد بالوباءِ والظروف الحياتية القاهرة المملوءة بالأزمات، الأمر الذي أحدث ردَّة فعل اتسمت بصورٍ تغييرات أضفت الجمود نوعاً ما على هذهِ المُمارسات الثقافية لكن دون اتفاق على التخلّي عنها قطعاً.

وثقافياً؛ فمن الأمور التي أسهمت في زيادةِ انتشار الأوبئة بين سكان العراق كما ذكر الدكتور الوردي هو إيمان غالبيتهم بالنزعاتِ القدَرية، إذ إنهم كانوا يرون في دخولِ الأوبئة وإصابتهم بها بأنها نابعة من حكمِ القضاء والقدر الذي كُتب عليهم لا محالة لذلك لا فائدة من مُقاومتهِ، حتى أنه بدخولِ الطاعون لبغداد عام ١٨٣١ أراد القنصل البريطاني إقناع الوالي باتخاذِ التدابير اللازمة للحجرِ الصحي، لكن رفض رجال الدين ذلك على أنه لا يتفق مع أحكامِ القرآن الكريم (الوردي،٢٠٠٥)، وإلى الآن ما زال العديد من أفرادِ المجتمع العراقي يؤمنون بالقدَرياتِ والغيبيَّات بشكلٍ مُبالغ بهِ، بحيث تُسيّر حياتهم بصورةٍ كبيرة، ويؤمنون بأن ما يصيبهم من أمراضٍ لا يكون لهم دخل بها وإنما هي ابتلاء وامتحان ليس لهم القدرة على دفعهِ إلا بالدُعاءِ، وهذا الصنف اختلف عن الصنفِ الذي لم يؤمن بوجودِ الوباء نهائياً، وإنما اعتقد بأنه مُرسل لكل إنسان غير صالح وظالم وربما لا يُصاب بهِ الفقراء، في حين أشارت الدلائل إلى إصابات عديدة في صفوفِ الفقراء ولا يُستثنى صالح من طالح، وظنوا أنه عقوبة من السماءِ لما يقوم بهِ البشر من معاصٍ وأخطاء، على أن هؤلاء تُسيَّر كل أمور حياتهم تقريباً وفق هذا النسق القدري الغيبي.

لقد خضع الفرد العراقي حقيقة لقيمٍ وعادات وتقاليد تفاوتت بين الاستسلام الكامل للمجتمعِ أو الخروج عن ما يقرَّه ذلك المجتمع أو التوفيق بينهما، وعلى أساس ذلك جاء الدوران المُفرغ له الذي لا يجعله يستقر نوعاً ما في توجهاته وتقلّبات حياته (محمد،٢٠٠٨)، فصنف من هذا المجتمع مؤمنٌ بوجودِ الوباء وآخر لا يعتقد قطعاً بوجودهِ، وآخر يرجعه للمؤامرةِ وآخر للقدَرياتِ والغيبيات، وذلك مُتأتٍ من اضطرابِ البيئة الحياتية وتوالي الأزمات عليهم، والذي جعلهم لا يركنون لاتجاهٍ ممارساتي وسلوكي واحد وتعدّد في الرؤى والمنظورات بل فوضى في الأحتكامِ لأكثرها نجاعة وتخبّط مُستمر قيمياً وثقافياً، فقد خلقت هذهِ الأزمة اضطراباً داخلياً لدى الفرد العراقي أُضيفت لأزماتهِ السابقة.

أيضاً مما تمَّت ملاحظته ورصده على لسانِ المبحوثين بالمنهج الاثنوغرافي والمعرفي، تعرُّض المُصاب بكوفيد ١٩ إلى الوصمِ الاجتماعي القائم على عدمِ القرب منه ومن عائلتهِ نوعاً ما بالنسبةِ للذين يؤمنون بالوباءِ وبآثارهِ، أي يُعزل، مما يؤثر عليه اجتماعياً.

لقد أشارت الدلائل للعديدِ من الأمراضِ والأوبئة المُعدية في فتراتٍ سابقة بأن الأشخاص الذين يتعرَّضون للحجر الصحي بسببِ المرض المُعدي قد يتم وصمهم، مما يعوق من قدرتهم على الالتزامِ بتدابيرِ الصحة العامة المعمول بها، بحيث قد يكون لهذا الوصم آثار اجتماعية طويلة المدى (ECDC,2020,para 26)، ومن الحالاتِ المُلاحظة في المجتمعِ العراقي في مجتمع البحث، أن الأفراد باتوا يُفضّلون القول بأن لديهم فرداً مُصاباً بأي مرض آخر على أن يقولوا بأنه مصاب بـ Coronavirus، فمن مظاهرِ الخوف من الوصمِ بهذا الوباء أن العديد من الإصابات لم يتم الكشف عنها من قبلِ المُصاب ذاته أو أهل المُصاب لأسبابٍ ثقافية قيمية اجتماعية تتعلَّق بالوصمِ الاجتماعي، الذي مُمكن أن يلحق به وبعائلتهِ أن اتضح للعامةِ أنه فعلاً مُصاب، لما يترتب على ذلك الحطِ من منزلةِ الشخص ومكانته وانعزال الناس عنه أو إضعاف التواصل معه وأهله في

المستقبلِ، إذ باتت الأسرة تتكتَّم بشكلٍ كبير على المُصاب لديها ومن الضروري ألا يعرف بخبرِ الإصابة كل المُحيطين بهم والأقارب حتى والأصدقاء، ولا مشكلة نوعاً ما من معالجتهِ في مستشفى لكن بعيداً عن الأنظارِ، خاصة للذكورِ، وقد لوحظت هذهِ الحالة بشكلٍ كبير في المجتمعِ العراقي، وتتكوَّن هذهِ التوجُّهات قيمياً في مخُيلةِ الأفراد، فالوباء أو أي مرض ليس بوصمةٍ ممكن أن تُمارس آثارها على الفردِ، لكن السير على ما تم توارثه وفق المنظومة الثقافية في وصمِ الشخص الذي يُصاب بالوباءِ هو من حمل هذهِ المسألة، ووصم الفرد المُصاب وما يلحق ذلك من آثارٍ نفسية قد تبقى ذات أثر طويل المدى في حياتهِ وحياة المجتمع معاً، فرض حالات الاكتئاب والقلق والعزلة ورهاب المجتمع، وكأن الفرد المُصاب قد ارتكب جريمة وهي لا تُغتفر له لأنه أُصيب بهذا الوباء.

وقد أدَّى وصم الأفراد المُصابين بالأوبئة إلى تأخرِ طلب الرعاية الصحية والحصول عليها، وقد يتعرَّضون للعنفِ إذ لا بد للتدخّلاتِ الصحية من تخفيفِ هذا الوهم أثناء رعاية هؤلاء المُصابين (Bruns et al.,2020)، فبقاؤهم معزولين عن الأنظار أو عن علمِ باقي الأفراد سيؤخّر ربما ذهابهم للمستشفياتِ ومراكز تلقي العلاج، وبالتالي التأخّر في طلبِ الرعاية والعلاج المُلائم في أبكرِ حالات الإصابة، حيث إن الخوف من الوصمِ والتواري عن أنظارِ ومسامع الناس يؤدِّي إلى استفحالِ الضرر على المُصابِ ويقيه ربما وصم الناس له، لأنهم لم يتعرَّفوا عليه بأنه مُصاب، أو ما يُمارس من جبريةٍ على العديدِ ومن ضمنهم النساء من ضرورةِ إبقاء الأمر مخفياً دون الإفصاح عنه.

لذلك وفق كل هذهِ المُعطيات أُصيبت المجتمعات ومن ضمنها المجتمع العراقي بصدمة التغييرات التي فرضتها هذهِ الجائحة بما في ذلك العزلةِ الجبرية والتباعد الاجتماعي وتعطُّل كل ميادين الحياة وإن كانت نسبها قد اختلفت بين مجتمع وثقافة وأُخرى، وفي العراق رغم قلة الالتزام بهذهِ التدابير إلا أنها شكَّلت ضربة مؤلمة للمنظومةِ القيمية بممارساتها الخاطئة والصحيحة والتي لم تستطع

الفترات الزمنية السابقة ولا الأحداث من إيقافها، فهي مثّلت قهراً وإن كان ليس كبيراً لها، أوقف استمراريتها وإن كان مؤقتاً ولا يمكن تحديد ما ستؤول إليه الأمور بعد انتهاء الجائحة من تغيّراتٍ، وماذا ستطال وهل هي كبيرة أم بسيطة؟ وخاصةً أن الجائحة لم تنته بعد حتى نستطيع أن نُحيط بكلِ مساراتها.

رابعاً- الدين ومنظومة الوعي وآليات التعامل مع هذهِ الجبرية:

عند انتشار هذهِ الجائحة في العالمِ كانتشار النار في الهشيمِ، طال هذا الانتشار كل مفاصل الحياة وأنظمتها ومُمارساتها وطقوسها وتوجهاتها وفعالياتها، لذلك كانت للنظمِ الدينية ردود أفعال تجاه الجائحة والجبرية التي أرغمت الناس فيها على الانعزالِ وضرورة السير وفق تدابير مُعينة.

من المؤكد أن التعاليم الدينية والأطروحات الخاصة بها تعاملت مع مثل هذه الأزمات منذ قديم الزمان بحسبِ مُنطلقاتها ومنظوراتها الأساسية، وتعد تلك المُنطلقات الإصابة بمثلِ هذهِ الكوارث والأوبئة غضباً أو عقاباً إلهياً على الظالمين من البشرِ، أو تبيان حقائق مهمة للبشرِ أو محاولات لإعادةِ توازن كفة الحياة البشرية، بسببِ جنوح هذهِ الحياة إلى اللااستقرار والفساد والخراب والتفكّك، وعلى مرِ السنوات والفترات الزمنية السابقة التي عاشها الإنسان وجد نفسه مُحاطاً عند الكوارث والأزمات بنوعٍ من التوجُّهات الدينية وردود الأفعال التي قد تُفسّر له ما يحدث وماذا عليه أن يفعل ويتَّبع، وأخذ بها البشر بحسبِ ثقافتهِم وتعاطيهِم مع هذهِ التعاليم والالتزام بها.

لقد كانت الأوبئة مُصاحبة للمجتمعاتِ البشرية طوال التاريخ، لذلك ليس من المُستغربِ أن تُثار ردود دينية جنباً إلى جنبِ الكوارث الطبيعية، والتي تُشكّك في معنى الحياة وظلمها (De Gruyter,2020,p.70)، بل أيضاً تُظهر وتستحضر الجانب العقابي الذي من المُمكن أن يتعرَّض له كل فرد مُخالف لتعاليمِ الدين أو سُنن الحياة والتأويل عليها، وربطها بالغيبياتِ القدريات، وقد كثر الحديث عن كوفيد ١٩ بأنه غضبٌ إلهيّ في نظرِ مجموعة من الأفراد، وكما تمَّت ملاحظته

في المجتمعِ العراقي وبأنه ناجمٌ عن ظلمِ البشرية وجورها وبطشها في الأرضِ وعدم الانقطاع إلى الله تعالى والابتعاد عن كل المعاصي، ورغم أن المسألة تتعلَّق بفيروسٍ يكون التعامل الأساسي المادي معه هو العلاج الطبي، لذلك جوبهت مثل هذهِ الردود الدينية بالاستهزاءِ أيضاً، وأن الفيروس لا يمكن أن يُحارب بالدعاءِ أو الرجوع للصلاحِ خاصةً أنه ضرب الكل دون استثناء بين صالح وطالح وفقير وغني وصغير وكبير وامرأة ورجل، بمعنى أن كل فئة لها مُنطلقاتها في التفسيرِ والتأويل والحكم، في حين يُجيب المؤمنون بالرأي الديني الغيبي بأنه حتى لو تم إيجاد لقاح ما، فالوباء لا ينتهى إلا بإشاراتٍ وأوامر إلهية ممكن أن تقضي عليه.

لذلك دائماً ما ستكون هناك إجابات قوية من المؤمنين في كلِ بلد يختلفون مع العلمِ والنُهج الحديثة لمُعالجة المشكلات، ويعودون بدلاً من ذلك إلى دينِ أجدادهم الراسخ، وهؤلاء المؤمنون لا يشتملون فقط على القدريين في المجتمعِ، بل أيضاً المُتعلمين والأطباء والمُعلمين والتكنوقراط من مختلفِ المهن، حيث تجد في العديدِ من الدولِ تحدٍ من قبلِ بعض الأشخاص لتوجيهاتِ السُلطات فيما يتعلَّق بالتباعدِ الاجتماعي والإجراءات الاحترازية فيما يخص العبادات المُجتمعية (Sharfuddin,2020,p.253)، وظهرت تلك الفئات بارزة إلى الوجودِ عند انتشار الجائحة واختلفوا في العراق مع مُتخصّصي الطب والصحة، ورفضوا بشكلٍ قاطع الإجراءات الوقائية التي تمنع التجمّعات وخاصة في بدايةِ دخول الوباء، بحجةِ أن هذهِ التجمّعات وما تقوم به هو ديني وسيكون طارداً لكلِ فيروس، بل لا يمكن له أن يصيب كل مؤمن يؤدّي تلك العبادات، إلى أن تم التقليل والقناعة بالأمرِ شيئاً فشيئاً، وعلى إثر ذلك حُجّمت في بادئِ الأمر العديد من الطقوسِ والزيارات للمراقدِ والعتبات المُقدَّسة ضمن إجراءات الحظر الجزئي أو الكلي، رغم توالي الصيحات بالسماحِ بإعادة إجراء المراسيم الدينية من صلاةِ جماعة وحضور الزيارات والطقوس، من عدَّةِ منطلقات منها ما يعود إلى المُنطلقِ الديني، وأيضاً المُنطلق الغيبي والقدَري، وكذلك عدم اليقين بضررِ

الجائحة، وأيضاً عدم الوعي أو عدم الاهتمام بوضعٍ هو في الأصل يُعاني من تأزمٍ واضح، وقد تم الالتزام نوعاً ما في بدايةِ الأمر بهذهِ العزلة، إلا أنه كما مُلاحظ الآن عودة النشاط الطقوسي الديني والزيارات كما هي على الرغم من إحجام عدد من الناسِ عن مُمارستها ورغم قيام الجهات المسؤولة عن المراقدِ الدينية بغلقها، إلا أن الحضور كان كبيراً أيضاً وبإجراءاتِ وقائية ضعيفة، وهذا ما شهدناه في شهرِ محرم الحرام وزيارة الأربعين للأمامِ الحسين عليه السلام وخاصة بعد رفع الحظر التام نهائياً.

ورغم تلك الرغبات والصيحات فالعديد من الجماعاتِ الدينية غيَّرت من سلوكياتها ومُمارساتها، حيث قلَّلت أو ألغت بعض الجماعات من اجتماعاتِ العبادة وتأجيل الطقوس الأُخرى، وتم تشجيع الأفراد على حضورِ التجمَّعات الجماعية الصغيرة ومُشاركة الصلاة بمجموعاتٍ صغيرة أو من خلالِ منصَّات الإنترنت (Bruns et al.,2020)، وهذا ما حدث في العراق بدايةً على الأغلبِ بعد ضبابية الأمر، وكيفية التصرَّف حيال تلك الاجتماعات والطقوس والعبادات، حيث أصدرت الجهات الدينية عدداً من التوجيهاتِ التي تتفق مع توصياتِ خلية الأزمة الصحية في العراق بعد الانتشار الواسع للجائحةِ والتي تنص على تأجيلِ عددٍ من الطقوسِ وغلق المراقد المُقدَّسة في بادئِ الأمر، إلى أن فُتحت وفق فترات الحظر الجزئي والسماح للزياراتِ بأعدادٍ قليلة ومُطبِقة للتباعدِ الاجتماعي مع إجراءاتِ الوقاية الأُخرى التي لم يتم الالتزام بها بشكلٍ كبير، ثم فُتحت نهائياً بعد ذلك دون أي نوع من الحظرِ، وحتى في المناسبات الدينية الرسمية الكبيرة التي انتهت سابقاً مثل عيد الفطر والأضحى تم فرض حظر التجوال العام خلال أيام العيد منعاً من تفشي الوباء بشكلٍ لا يمكن السيطرة عليه نهائياً، وتبقى المسألة رهن انتهاء هذهِ الجائحة وما ستُفصح عنه التغيَّرات، على أن هناك طقوسًا وتعاليمَ لا يمكن إلغاؤها قطعاً، وإنما تم التريث بالقيامِ بها فهي تُشكّل جزءاً من المنظومةِ الثقافية والدينية للمجتمعِ العراقي.

حتى أن المملكة العربية السعودية التي تُعد موطنًا لأقدمِ وأهم مكانين مُقدسين في الإسلام وهما مكة والمدينة المنورة حيث يزورها ملايين الحجاج من عدَّةِ دول على مدارِ العام، علَّقت جميع مناسك العمرة كخطوة استباقية وفي الوقتِ المناسب لإحباط تفشي كوفيد ١٩ بين الحجَّاج (Quadri,2020)، ومر أيضاً موسم الحج دون السماح للحجاجِ من الدولِ الأُخرى للمجيءِ إلى داخلِ السعودية وأداء مناسك الحج، وإنما اقتصر الأمر على بعضِ الموجودين داخلها، مع تصاعدِ الصيحات كما ذكرنا من العديدِ من عامةِ الناس بوجوبِ رفع الإجراءات عن كلِ ما يتعلَّق بالعباداتِ والزيارات والحج بحسبِ وعيهم وما يعتقدون بهِ.

وعلى ذكرِ الوعي فهو الركن الأهم في مسألةِ اتساع انتشار الأوبئة أو انحسارها والإيمان بوجودها ومخاطرها وكيفية التعامل معها، فليس كل فرد يعي ضرورة اتخاذ الإجراءات الاحترازية ضد الأوبئة، فهناك من يعي أن تلك الأمور ليست بمشكلةٍ رغم خطورتها، وآخرون يعرفون يقيناً بالوعي المنطقي لديهم بأنها تُشكَّل مُشكلات مُعقدة ولا بد من احتوائها.

لذلك يمكن القول: إن اختلال الوعي وتأزمه يلقي بظلالهِ السوداء على الجوانبِ الحياتية، الفردية والمجتمعية مُصاحباً لأزماتِ وكوارث على الصُعدِ كافة، والذي يمكن أن يحيل حياة البشرية إلى فوضى دائمة من صُنعِ الإنسان ذاته (محمد،٢٠١٢)، فكلما وعي الإنسان بصورةٍ منطقية بما يحيط بهِ من ظروفٍ وأزمات، استطاع تمييزِ ما يضرّه أو ينفعه، فلا يمكن عد جائحة مثل كورونا على أنها بسيطة وهي عابرة أو تُصيب فئة دون أُخرى، أو نرجعها لأمورٍ تتعلَّق بسوءِ الحظ والقدر وهي مجرد أزمة عادية حالها حال ما مر به المجتمع العراقي من أزماتٍ، وأنها لا يمكن أن تؤثّر مثلما ألحقته الأزمات الأُخرى من تأثيراتٍ عدة، لا بد من وعيها على أنها وباء له الأثر الأكبر في القضاءِ على حياةِ الإنسان الذي يُعد اللبنة الأساسية لبناءِ المجتمع وإدامته، واستفحاله وانتشاره وبقائه سيدفع

المجتمع إلى الاندثارِ والتحطّم، ويترتب على ذلك تبعات أُخرى تُحيل الحياة إلى دمارٍ من تبعاتٍ اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية وغيرها.

إن كورونا آفة خطيرة يتوجب الوعي بأضرارها حالها حال الأزمات التي يمكن أن تشل حياة الإنسان وقدراته، فما لوحظ عند الكثير مما ورد عن المجتمعاتِ وما تم ملاحظته في المجتمعِ العراقي هو ضعف الوعي نوعاً ما بما يمكن أن تُسبّبه الأوبئة من أزماتٍ للمجتمعاتِ والأفراد، فلا يمكن التعامل معها على أنها ليست ذات ضرر بتأثيرٍ غيبي أو قدَري أو ثقافي أو من ناحيةِ عدم الاهتمام أو عدم أخذ الحيطة والحذر من كلِ الكوارث التي تحدث.

وعلى هذا الأساس تعاملت المنظومة الدينية بتعاليمها ومُمارساتها مع كوفيد١٩ وما زالت بحذرٍ وتذبذب في المواقفِ بين الرافض للإجراءاتِ الاحترازية وبين المُوافق عليها لكن بالتخفيفِ منها، بمعنى مارست الجائحة عليها جبرية واضحة في التقيد ولو بشكلٍ خفيف في عددٍ من الثقافاتِ، مع وضوحِ أهمية الوعي في قضايا التعامل مع الأزمات، حيث ظهر أن هناك قصوراً من فئاتٍ ليست بالقليلةِ من البشرِ في فهمِ هذهِ الأزمات وضرورة التعامل معها.

خامساً- إمكانية نشوء نموذج جديد لثقافةِ ومجتمع ما بعد الجائحة:

إن مسألة التغير بسببِ كوفيد١٩ تتعلَّق بنسبةِ التقبّل والتأثّر بهذا الفيروس حياتياً وقوة المنظومة الثقافية وقابليتها على التغيّرِ ووعي المُتأثّرين من البشرِ وخاصةً أن الوباء لم ينته إلى الآن، فهل ستتغيَّر الأنماط الثقافية قاطبة بعد انتهاء هذهِ الجائحة؟ وهل سيتشكَّل نموذج حياتي جديد أنتجته العزلة والتباعد الاجتماعي بعد الفكاك نهائياً من هذهِ الأزمة؟ يقيناً أن الحياة مُقبلة على تغييراتٍ هائلة في الأنظمة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحياتية قاطبة، لكن ليس بنفسِ المستوى في القوةِ والتأثر، سيُصاغ العالم وفق صورٍ جديدة، بل إن الفيروس منح العالم القدرة أيضاً سياسياً لإعادةِ التمركز وبسط النفوذ والقوى وذلك حتى مع استمرارِ الجائحة وعدم انتهائها، إذ من الممكنِ أن تُفصح المراحل

القادمة وما ستؤول إليه الأمور عن تموضعاتٍ عدّة في دقائقِ الحياة، فلا يمكن البت نهائياً بكلِ ما سيجري لأن الجائحة لم تنته بعد، وستتقلّب أوجه حياتية عديدة باستمرارها إلى نهايتها.

سيتشكَّل نظام عالمي جديد، وستضطر المقاهي والحانات إلى تغييرِ الطريقة التي تخدم بها عملاءها من قبلِ ربما، والاعتماد على الطلباتِ الخارجية وربما فرض رسوم إضافية، وسيصبح التباعد الاجتماعي هو القاعدة الجديدة، وستُقوَّض الاتصالات الاجتماعية والثقافية (Sharfuddin,2020,p.253)، لكن ليس بهذهِ المُبالغة فلن يتغير العالم بدرجةٍ واحدة، ولن يشمل ذلك كل ميادين الحياة بنفسِ الطريقة، فمن تتأثَّر منظومتهِ الثقافية من البلدانِ بدرجةٍ ما قد لا نجد ذلك عند منظومة أُخرى من البلدانِ، ففي العراق الذي تُسيّر المنظومة الثقافية الحياة فيه بشكلٍ كبير، لم تتأثَّر كثيراً كمنظومة ثابتة بأصولها بهذهِ الجائحة على الرغم من أنها مثَّلت لها قهراً واضحاً، لكن ليس إلى الحدِ الذي ستُغيّر جملة من أُسسها وأصولها، فما أن تنتهى الجائحة ستتم ممارسة كل الأنماط الثقافية كما كانت، وهي تُمارس الآن رغم الإيعاز بضرورةِ تعطيل أو إلغاء بعضٍ منها بسبب كوفيد١٩، لذلك لم تظهر بوادر نشوء نموذج ثقافي جديد بالمعنى الحقيقي له ليحل محل أنماط أُخرى أو يستبدل بمُمارساتٍ مُناسبة، لكن ستترك هذهِ الأزمة أثراً من الممكنِ أن تُخبِّئه الذاكرة الثقافية للاستعانةِ به على أزماتٍ أُخرى إن حدثت. وأيضاً هناك مجتمعات ستتغيَّر مُمارساتها الثقافية وستستعيض عن أُخرى كبديل للمُمارساتِ التي لم تتوافق وتدابير العزلة والتباعد الاجتماعي، لذلك ستشهد عدداً من الثقافاتِ تغيّرات مهمة لطقوسٍ وأنماط كانت مُتبعة باتت غير ذات فائدة في ظلِ هذهِ التغييرات.

أيضاً ستستغل الدول المُعادية ظروف كوفيد١٩ لتعطيلِ الحياة، ولن تختفي الحروب ولكن ستتغيَّر طريقة خوضها، وسيُعاني الفقراء والمحرومون أكثر من غيرهم في جميعِ جوانب حياتهم، وستصبح الفردية الكلمة الأساسية لبقاءِ الإنسان

في عالمٍ معولم (Sharfuddin,2020,p.253)، فالفقر لم ينته ولم توجد له حلولٌ جذرية ممكن أن تجتث أُس الإفقار وتبديد الموارد وعدم العدالة في توزيعها، حتى زادت هذهِ الجائحة من الأوضاعِ مأساويةً، بحيث سيزداد ذلك الإفقار وسيُستغل الوباء كأوراق رابحة من قبلِ موزّعي ومديري الاقتصادات والعولمة في العالمِ، لإنتاج طبقات محرومة أكثر محاولين توظيف هذهِ الأوراق لبسطِ سيادتهم وقواهم على العالمِ.

لقد تأثر العراق المحروم في ظلِ أزمات المجتمع السابقة والحالية، بشكلٍ كبير جداً من جرَّاء مُلابسات هذا العزل والتباعد، بسببِ بعض الإجراءات من حظرِ التجوَّل العام ومنع بعض المصالح الشخصية من العملِ وعدم مساعدة المعوزين والمحرومين من هذهِ الطبقات حكومياً إلا بشكلٍ بسيط، الأمر الذي جعلهم بمواجهةِ مشكلة مُعقَّدة في حياتهم، فلم يعيروا أهمية لهذا الوباء لان الأمر أصبح يتعلَّق بقوتِ يومهم، فحتى يعيش لا بد له من الخروجِ ليحصل على كسبِ رزقه، وبعضهم بالأصلِ غير مؤمن بشيءٍ اسمه وباء بالعودةِ إلى التفسيراتِ الغيبية والقدَرية وعدم الاهتمام وقصور الوعي، وفي المحصَّلةِ الأخيرة زادت محنة هذهِ الشرائح المُهمَّشة.

في العالمِ العربي أصبحت استجابة المجتمع ككل لفيروسِ كورونا حرجة بشكلٍ كبير، حيث أصبحت البلدان تعتمد بشكلٍ مُتزايد على القطاعِ الخاص، لتوفيرِ الرعاية الصحية، إذ باتت الدولة لا تكفي وحدها لمواجهةِ الوباء(El-Jardali,2020)، وخاصة في المجتمعاتِ التي تُعاني أصلاً من قصورِ مؤسَّسات الدولة والحكومة في تدبيرِ شؤون حياتها، فمن المتوقَّع أن تعمد الدولة لمواجهةِ مثل هذه الجائحة، بتسخير كل مواردها وخططها لتطويقِ الوباء والتخطيط لكيفيةِ تفاديه مع خططٍ من الممكن أن تُسيَّر الحياة بشكلٍ طبيعي دون أن يكون هناك أي خلل في الحياةِ الطبيعية للأفرادِ. لكن ما واجهته العديد من المجتمعاتِ ومن ضمنها العالم العربي والعراق هو قصور حكومي ومؤسَّسي واضح في استيعابِ

صدمة الوباء هذه، فظهر النقص واضحاً في المؤسَّساتِ الطبية والصحية من ناحيةِ التطبيب والكفاءات العاملة وغياب المهنية والتمويل والبنى التحتية وغيرها من الأمورِ التي يمكن أن تُخفّف من اتساعِ هذه الجائحة.

إذ ظهر في العراق أن هناك قصورًا كبيرًا في المؤسَّساتِ الصحية والطبية وخاصة بعد ازدياد أعداد المُصابين، وقد ترافق هذا مع أزماتِ البلاد والضائقة الاقتصادية والتقلُّبات السياسية، الأمر الذي أبرز عدَّة جهات دخلت كخطوط إعانة للجهاتِ الحكومية منها بعض الجماعات الدينية والتبرَّعات الشخصية من قبلِ الأهالي كنوع من التضامنِ والمُساعدات.

إن تراكم المحن قد أفرغ المجتمع العراقي من مصدَّاتِ الأمان التي تُمكَّنه من السيطرةِ على أمورهِ، فاليوم بات مجتمعاً يُعاني تبدّلات جوهرية في شخصيةِ الفرد العراقي، نتيجة مروره بفتراتِ ضعف وقوة عملت على تكوين صور لذلك الفرد في كلِ الوضعيات التي مر بها، أي أن المجتمع العراقي قد وزَّع قابلياته على هذهِ الأزمات، وكانت المُحصّلة الأخيرة مُجتمعاً مُثقلاً بالأزمات ولا يقوى على النهوضِ بسهولةٍ (محمد ،٢٠٠٥،فقرة٦)، ويعد ما حدث له مجرد أزمة أُخرى تُضاف لمحنهِ وكوارثهِ، فلم يُصعق كثيراً وهو قد تعوَّد صور الموت والخراب والفساد والتدهور والقحط والاضطهاد والاقتتال والحروب والنزاعات، بل قام العديد من أفرادهِ في بادئِ الأمر بالاستهزاءِ بصورةٍ فكاهية بالوباءِ، بتمثيلِ الأمر بأن ما مر به هو أكبر وأقوى ولن يهمه ما سيجري بعده من أشياء تبدو وكأنها أصغر، أي أن الذي قاوم الحروب والقتل والتعذيب والفساد سيصمد، بل لا يهتم لفيروسٍ لا يُرى بالعينِ المُجرَّدة، حسب آرائهم وما يدور في مُخيلةِ العديد منهم.

لعل وصول المجتمع العراقي لما هو عليه اليوم في ظلِ هذهِ اللامبالاة كثيراً بما يحدث له، هو نتيجة لترسباتٍ ألقت بظلالها على ما يُفكر به وما يحاول أن يُميزه، فكثيراً ما يُثار الشك بأن المجتمع العراقي يبني أفكاره ورؤاه وفقِ ما

ورثه من الأجيالِ القديمة حتى مع دخولنا للألفيةِ الثالثة، فهم يُسيرون حياتهم وفق منوال السابقين ومنظوراتهم الثقافية (محمد،٢٠٠٤)، وهذهِ واحدة من الانتكاساتِ وهي التمسّك بماضي الأجداد دون تهذيبه ومحاولة الإبقاء على ما هو مُناسب لتطوراتِ العصر وتقلباته، إلا أن ذلك لا يعني انفراد هذا السبب وحدهِ بما مر ويمر به الفرد العراقي، فهناك كما ذكرنا أسباب تعود للتخبّطاتِ السياسية والفساد والظلم الاجتماعي والتفاوت الطبقي وقصور الوعي وغيرها من الأمورِ التي أفقدته المقاومة الحقيقية لمثلِ هذه الأزمات التى مر بها ومن الممكن أن تلحقه في فتراتٍ لاحقة.

لذلك وفق هذهِ التصوَّرات عن إمكانيةِ نشوء نموذج جديد لثقافةِ ومجتمع ما بعد الجائحة، فلا يمكن ترك الحبل على الغاربِ فيما ستؤول إليهِ الأمور، وهل سيتشكَّل نموذج أو نماذج ثقافية بسببِ موجة التغييرات القادمة، وتشكّل مجتمع ما بعد الجائحة؟ فهناك من سيتغيَّر بنسبٍ كبيرة وآخر لن يتغير بشكلٍ واسع، وما زالت هناك ربما مفاجآت ستُفصح عنها هذهِ الجائحة وجبريتها، لكن ما يجب الالتفات إليه أنه في ظلِ هذهِ الجائحة لا بد من تطويرِ واعتماد آليات عمل على مستوى ثقافي واجتماعي واقتصادي وحياتي بشكلٍ واسع لتوقعِ استقبال كل تغيير ليس بالضرورةِ من الداخلِ وإنما من الخارجِ، فلو لم يتأثَّر المجتمع كثيراً بالتغييرِ من الداخلِ فلا بد من إعداد العدَّة لاستقبالِ التغييرات من الخارجِ التي تفرض ذاتها عليه، ولا بد له من التوافقِ مع مُعطياتها.

من هنا لا بد من تطويرِ استراتيجية شاملة مثلاً للإبلاغِ عن المخاطرِ، وينبغي أن يُقدَّم للجمهورِ الأساس المنطقي والتبرير وراء تدابير التباعد الاجتماعي المُنفَّذة، وإعلام السُكَّان بالتدابير المُرخص بها (ECDC, 2020,para25)، أي توقَّع والإعداد للمخاطرِ التي ممكن أن تنشأ سواء بعد انتهاء الجائحة أو حتى بوجودها الآن، على أن توضع استراتيجيات أُخرى تُعد لمواجهةِ ما يمكن أن يتعرَّض له العالم مُستقبلاً، ولعل العراق واحد من المجتمعاتِ التي

أُبتليت بالأزمات العديدة، حيث بات مجتمع مخاطر تتقاذفه النكبات من كلِ حدبٍ وصوب، وعلى هذا الأساس لا بد من تحديدِ آليات التعامل مع هذهِ الكوارث، دون الاكتفاء بطرقِ الانتظار مما ستؤول إليهِ الأمور بعد انتهاء الجائحة وما ستُنذر به المراحل الحياتية القادمة من أزماتٍ ربما، أي لا بد أن يكون هناك توقَّع عال وبصورةٍ مُخطَّطة لما يحتاجه المجتمع وكيفية مواجهة المخاطر.

في مجتمعِ ما بعد كورونا في العراق، لا نتوقع تغييرات هائلة على المستوى الحياتي بكلِ ميادينه بسببِ تشابه الأوضاع واستمرارية الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فلم يُشكّل إصابة المجتمع بهذا الوباء تغييراً جوهرياً لما كانت عليه الأوضاع لأنها بالأصلِ مأزومة، فالزيادة هي في عددِ الأزمات ليس إلا.

استنتاجات:

فيما يتعلَّق بما استنتجتهُ الدراسة حول كوفيد١٩، وبالذات في المجتمعِ العراقي، لا يمكن تحديد استنتاجات نهائية وذلك بسببِ أن الجائحة لم تنتهِ بعد وما زالت آثارها مُستمرة، ولا يتم تحديد كل أركانها إلا بعد الخلاص منها، لذلك كانت الدراسة عبارة عن توصيفاتٍ وفهم ذاتي للمبحوثين للجائحةِ، بملاحظةِ التأثيرات والتغييرات التي يمكن أن تكون قد طالت المجتمع العراقي خلال وجودها وإلى الآن، وكيف تم وما زال التعامل معها، لذلك فهي استنتاجات تتوافق ومرحلة وجودها، وقد تكتسب الصفة النسبية وليست المُطلقة، وأبرز هذه الاستنتاجات هي:

١. على الرغم من أن الجائحة بدخولها جعلت المنظومة الثقافية والمجتمع العراقي أمام جبرية الالتزام بالتدابيرِ وضرورة التخلّي أو ترك بعض الأنماط والسلوكيات بصورةٍ مؤقتة، وقد تم ذلك إلا أنه لم يكن بالصورةِ التي ربما ظهرت في المجتمعاتِ الصناعية مثلاً، أي لم يتغير ويتأثَّر الكثير على مستوى قيمي وثقافي على الرغم من توقف بعض الأنماط الثقافية، فما زالت

بعض المُمارسات تُمارس وإن كانت ليست بشكلٍ واسع، ولم تظهر هناك غايات نحو ترك ممُارسات أُخرى نهائياً.

٢. لم يُطبَّق التباعد الاجتماعي بصورهِ المطلوبة، وذلك بحكمِ الظروف والأزمات التي يمر بها أفراد المجتمع العراقي وبالذاتِ الطبقات الفقيرة والتي بحاجةٍ ماسَّة إلى الاختلاطِ وكسب الرزق، إذ برزت صور هذا التباعد بنسبٍ بسيطة، ولعل أبرز المُبرّرات لعدمِ الاتساق والالتزام بهذا التباعد، هي اعتزاز الأفراد الكبير بإرثهم ومكتسباتهم الثقافية، والتي لا يمكن بأي حال من الأحوال التخلّي عنها أو تركها ولو لفترةٍ، لذلك كانت إجراءات الالتزام بسيطة ومُتفاوتة، وأيضاً اختلطت هذهِ المُبرّرات مع الدوافعِ الاقتصادية وبالذاتِ بالنسبةِ للفئاتِ المسحوقة أو الفقيرة من البروليتاريا، والتي تعتمد القوت اليومي، لذلك لم تُطبّقها كلياً وإنما بشكلٍ بسيط، وكذلك الإيمان ببعضِ الغيبيات والقدريات التي لا تؤمن بشيءٍ اسمه الوباء، مما قلَّل من الالتزامِ بتدابيرِ التباعد الاجتماعي.

٣. تعرّض أفراد المجتمع العراقي لصدمة أثناء دخول هذهِ الجائحة بجبرية أو ضرورة تحقيق ذلك التباعد الاجتماعي والعزلة الاجتماعية، وهو الأمر الذي لا يمكن تحقيقه في ظلِ كل مُعطيات الظروف والمنظومات الثقافية الخاصة بهم، مما جعلهم وفق تلك الصدمة لا يلتزمون بهذهِ التدابير بصورةٍ حقيقية، فكيف يتخلَّون عن العديدِ من الأنماطِ والمُمارسات التي أقاموها واستمرت حياتهم عليها، فكانت ردة الفعل هي بعدمِ الالتزام أو الالتزام البسيط.

٤. ألزمت الإجراءات الدينية في المجتمعِ العراقي الأفراد بضرورةِ الالتزام بتدابيرِ التباعد والحجر الصحي، رغم التفسيرات الدينية المُختلفة للعديدِ من الأفراد بإرجاع الجائحة إلى اعتبارها عقاباً لكلِ طالح ولا يمكن أن يُصاب بها الصالح، مع إيعازِ الجهات الدينية بالتوجّه كثيراً إلى الله تعالى للفكاكِ من هذا الوباء إضافة إلى الالتزامِ الصحي وما بذلته من إجراءاتٍ بالمساعدةِ

الصحية للعديدِ من الإصابات.

٥. في ظلِ ما تم ملاحظته وتوصيفه لأفرادِ المجتمع العراقي، فلا يمكن الحكم مُطلقاً على تشكُّل أنماط ثقافية جديدة فيما يسمى بـ ثقافة ومجتمع ما بعد الجائحة، فالأمر رهن بانتهاءِ هذهِ الجائحة، وكما أن الإشارات الأولى كما أسلفنا لم تُظهر نزوعاً واضحاً نحو هذا التشكّل الجديد الذي يمكن من خلالهِ استبدال وترك العديد من الطقوسِ والمُمارسات في ظلِ موجة التغييرات.

٦. لذلك لا يمكن الجزم بأن المجتمع العراقي مُقبل على موجةِ تغييرات كبيرة حصراً بسببِ هذهِ الجائحة، لأنه في تغييرٍ وتقلّبات دائمة في خضمِ التغييرات المُتأتية من الأزمات المُستمرة له، فقد لا يفرق ما أحدثته وستُحدثه الجائحة ربما بشيءٍ قياساً بما حدث ويحدث له على كافةِ المستويات الحياتية، فهو ما زال مأزوماً بفعلِ الحروب والتخبّطات وصور الفساد والتعثُّرات العديدة التي أعادت تشكيل صور حياتية عدة له ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً.

المراجع

- تيمرمانز، ستيفان و هاس، ستيفن.(٢٠١٨). نحو علم اجتماع المرض(مازن مرسول محمد، مُترجِم). *مجلة إضافات: المجلة العربية لعلم الاجتماع، (٤٢،٤١)،(٢٦٣-٢٨٨)*.
- محمد، مازن مرسول.(٢٠٠٥، تشرين الاول ١١). المجتمع العائم. *شبكة النبأ المعلوماتية*. https://annabaa.org/nbanews/51/063.htm
- ----------.(٢٠٠٦). الطوطمية والصنمية: التباعد والتقارب. *مجلة مدارك*،(٤)،(١٣٧-١٤٢).
- ----------.(٢٠٠٨). *سوسيولوجيا الأزمة المجتمع العراقي نموذجاً: دراسة نظرية*. مؤسسة العارف للمطبوعات.
- ----------.(٢٠١٢).*مشكلة الوعي ووعي المشكلة: قراءة سوسيو ابستمولوجية في خطابِ الوعي المتأزم. دار الفارابي.*
- نخبة من أساتذةِ الجامعات في العالمِ العربي.(٢٠١١). *طب المجتمع*(ط.٢).أكاديميا.
- واتس، شلدون.(٢٠١٠). *الأوبئة والتاريخ: المرض والقوة والإمبريالية*(أحمد محمود عبد الجواد: مُترجم).المركز القومي للترجمة.(العمل الأصلي نُشر في١٩٩٧).
- الوردي، علي.(٢٠٠٥). *دراسة في طبيعةِ المجتمع العراقي*. منشورات سعيد بن جبير.
- Aslam, Fahim.(2020,April7).Covid-19 and Importance of Social
- Distancing. Preprints. https://doi:10.20944/preprints202004.0078.v1.
- Aziz, Peshawa Yunis, et al.(2020).The strategy for controlling COVID-19 in Kurdistan Regional Government (KRG)/ Iraq: Identification, epidemiology, transmission, treatment, and recovery. International Journal of Surgery Open,(25),41-46. https://doi.org/10.1016/j.ijso.2020.06.006.
- Bruns, Debra Pettit, et al.(2020).Covid-19: Facts, Cultural Considerations, and Risk of Stigmatization. *Journal of Transcultural Nursing*,*31*(4),326-332. https://doi:10.1177/1043659620917724.
- De Gruyter Social Sciences Pamphlet .(2020). 12 *perspectives on the pandemic International social science thought leaders reflect on Covid-19* . https://blog.degruyter.com/wpcontent/uploads/2021/02/DG_12perspectives_socialsciences.pdf

- El-Jardali, Fadi.(2020,April 10). *After the Pandemic: Reimagining the Role of State and Non-State Actors in (Re)building National Health Systems in the Arab World*. Chatham House.

  https://www.arab-reform.net/wp-content/uploads/pdf/Arab_Reform_Initiative_en_after-the-pandemic-reimagining-the-role-of-state-and-non-state-actors-in-rebuilding-national-health-systems-in-the-arab-world_10073.pdf?ver=475a2db6add794191b3c58f2e9235fe0
- Enabling peace in Iraq center.(2020). *Mitigating the impact of Covid-19 in Iraq*.

  https://enablingpeace.org/wp-content/uploads/2020/04/EPIC_Brief-on-Mitigating-the-Impact- of-COVID-19-in-Iraq_April_2020.pdf.
- European Centre for Disease Prevention and Control.(2020).
- *Considerations relating to social distancing measures in response to Covid-19 – second update* .

  https://www.ecdc.europa.eu/sites/default/files/documents/covid-19-social-distancing-measuresg-guide-second-update.pdf.
- Food and Agriculture Organization .(2020). *Covied-19 and its impact on food security in the Near East and North Africa How to respond?*.

  http://www.fao.org/3/ca8778en/CA8778EN.pdf.
- Humanitarian programme cycle.(2020). *COVID-19 Addendum to the Humanitarian Response Plan 2020 IRAQ*.

  https://reliefweb.int/sites/reliefweb.int/files/resources/iraq_hrp_2020_covid-19_addendum_20200719.pdf.
- Huynh, Toan Luu Duc .(2020). Does culture matter social distancing under the COVID-19 pandemic?. *Safety Science*,(130).

  https://doi.org/10.1016/j.ssci.2020.104872.
- Lavell, Allan, et al.(2020, April 21). *The Social Construction of the Covid-19 pandemic: disaster, risk accumulation and public policy*.
- https://www.desenredando.org/covid19/Social-construction-of- the-COVID19-pandemic-disaster-risk-accumulation-public- policy-RNI-LA-RED-22-04-2020.pdf.

- Quadri, Sayed A.(2020). COVID-19 and religious congregations: Implications for spread of novel pathogens. *International Journal of Infectious Diseases*,(96),219-221.
  https://doi.org/10.1016/j.ijid.2020.05.007.
- Sharfuddin, Syed .(2020).The world after Covid-19.*The Commonwealth Journal of International Affairs*,*109*(3),247-257.
  https://doi.org/10.1080/00358533.2020.1760498.
- Un Habitat.(2020). *The cultural mobilization in the Covid-19 pandemic* .
  https://www.uclg.org/sites/default/files/eng_briefing_culture.pdf.
- UNCTAD.(2020). *Covid-19 And Tourism: Assessing The Economic Consequences*.
  https://unctad.org/en/PublicationsLibrary/ditcinf2020d3_en.pdf.
- United Nations.(2020). *Policy Brief: The Impact of COVID-19 on the Arab Region An Opportunity to Build Back Better*.
- https://www.un.org/sites/un2.un.org/files/sg_policy_brief_covid-19_and_arab_states_english_version_july_2020.pdf.
- United Nations.(2020a). *Covid-19 and Human Rights We are all in this together* .https://unsdg.un.org/ar/node/30683.
- United Nations.(2020b).*Covid-19 And Women's Human Rights:guidance*.
  https://www.ohchr.org/Documents/Issues/Women/COVID-19_and_Womens_Human_Rights.pdf.
- Vos, Jonas De .(2020).The effect of COVID-19 and subsequent social distancing on travel behavior. *Transportation Research Interdisciplinary Perspectives* ,(5). http://dx.doi.org/10.1016/j.trip.2020.100121.
- World Economic Forum.(2020). *Challenges and Opportunitiesin the Post-COVID-19 World*.

http://www3.weforum.org/docs/WEF_Challenges_and_Opportunities_Post_COVID_19.pdf.